العُدُولُ عَنْ صُورةِ النَّعْتِ إلَى صُورةِ الإضافةِ

قصيدةُ "دُنْيَا أَدْمُعٍ وَمَآتِمَ"

لمحمود حسن إسماعيل أنموذجًا

د/ وديدة عبد الظاهر السيد الشناوي

مدرس البلاغة والنقد

في كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات القاهرة

العُدُولُ عَنْ صُورةِ النَّعْتِ إلَى صُورةِ الإضافةِ قصيدةُ "دُنْيَا أَدْمُعٍ وَمَآتِمَ" لمحمود حسن إسماعيل أنموذجًا

وديدة عبد الظاهر السيد الشناوي

قسم البلاغة والنقد ، كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات القاهرة ، جامعة الأزهر ، مصر

البريد الإلكتروني : wadedaelshenawy1671.el@azhar.edu.eg

ملخص البحث :

قدْ يلْفِتُ المُتكلِّمُ انتباهَ المُتلقِّي، فيعمدُ إلى التَّصرُّفِ في ترتيبِ عناصِرِ الكلامِ على غيرِ المعهُودِ فيها، وذلكَ لهُ مظاهرُ كثيرةٌ؛ منها العُدُولُ عَنْ صُورةِ النَّعْتِ إلَى صُورةِ الإضافةِ، والنَّعْتُ أحدُ التَّوابِعِ الخمسةِ في كلامِ العربِ، ولهُ صورةٌ معروفةٌ، هي الإتْيانُ بالموصوفِ أوَّلا، ثُمَّ وصفُهُ بصفةٍ توضِّحُهُ، أو تُخصِّصُهُ، أو تُؤكِّدُهُ... إلى غيرِ ذلكَ منْ أغراضِ النَّعتِ الموضُوعةِ لهُ، وللنَّعْتِ دورٌ كبيرٌ ووظيفةٌ مُهمَّةٌ في لغتِنا العربيَّةِ، لا نسْتغني عنهُ في التَّراكِيبِ، ومنَ الشُّعراءِ مَنْ يتصرَّفُ في التَّركِيبِ النَّعتيِّ، فيقلِبُ هذا التَّركِيبَ، عن طريقِ تقْديمِ الصِّفةِ على الموْصُوفِ، ومِنْ هؤلاءِ الشَّاعرُ المُعاصرُ "محمودُ حسنُ إسماعيلُ"، صاحبِ النِّتاجِ الشِّعْريِّ الضَّخْمِ، حيثُ استخدمَ هذه الظاهرةَ في شِعْرِهِ كثيرًا، ومِنْ ثَمَّ يهدفُ هذا البحثُ إلى نظرةٍ بلاغيَّةٍ على أنمُوذجٍ من شعرِهِ، وهو قصيدةُ "دُنيا أدمُعٍ ومآتمَ" من ديوانِ "هكذا أغنِّي"، ضمنَ أعمالِهِ الشِّعريَّةِ الكامِلةِ، وذلك منْ خلالِ تحليلِ هذهِ القصيدةِ بلاغيًّا، والوقوفِ على قلبِ النَّعْتِ فيها، وأسرارِهِ البلاغيَّةِ.

الكلمات المفتاحيَّة: صُورةُ النَّعتِ ، صُورةُ الإضافةِ ، العدول ، نظرة بلاغيَّة، قصيدةُ "دُنيا أدمُعٍ ومآتمَ"، محمودُ حسنُ إسماعيلُ، أسراره البلاغيَّة.

Conversion From Adjective To Genitive Of Mahmoud Hasan Ismail's Poem: "Life Of Tears And Obsequies"

Wadida Abd al-Zahir al-Sayyid al-Shinnawy
Lecturer of Rhetoric and Criticism at the Faculty of Islamic and Arabic Studies for girls in Cairo
E-mail : wadedaelshenawy1671.el@azhar.edu.eg

Abstract :

the speaker may attract the attention of the audience by changing the order of the words through several ways, including the changing of the na't construction. na't is one of the four appositives in arabic. this phenomenon has a well-known form. it is to bring the qualified word first, followed by a qualifier that clarifies, specifies, or confirms it… na't has a significant role and function in arabic. some poets change the order of the na't construction by bringing the qualifier before the qualified word. among them is the contemporary prolific poet mahmoud hasan ismail. he used this phenomenon numerous times in his poetry. therefore, this research aims at discussing this phenomenon in one of his poems; namely, "life of tears and obsequies" included in his collection of poems entitled: "this is how i sing" and published with his complete poetry works. the research analyses the poem rhetorically with a view to understanding the rhetorical secrets behind the inversion of na't.

keywords: Na't Construction , Rhetorical Overview , Conversion, Adjective, Genitive ,Poem : "Life Of Tears And obsequies" , Mahmoud Hasan ismail , Rhetorical secrets.

مقدمة

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، الَّذي تَفضَّلَ على أُمَّةِ سيِّدِنا مُحمَّدٍ – ﷺ – بِكتابٍ عربيٍّ مُبِينٍ، وتَكفَّلَ بِحِفْظِهِ إلى يوْمِ الدِّينِ، والصَّلاةُ والسَّلامُ علَى أشْرفِ الخلْقِ، وحبِيبِ الحقِّ، سيِّدِنَا مُحمَّدٍ، أفْصحِ العربِ، وأبْلغِهِمْ، وأبْينِهِمْ أجمعينَ، وعلَى صحابَتِهِ الغُرِّ الميامِينَ إلى يوْمِ الدِّينِ.

أمَّا بعْدُ ...

فإنَّ علمَ البلاغةِ – وبالأخصِّ علمَ المعاني– وثيقُ الصِّلةِ بعلمِ النَّحْوِ؛ إذ يقُومُ الأوَّلُ على دراسةِ أحْوالِ التَّراكيبِ العربيَّةِ، وما فيها منْ ذكْرٍ وحذفٍ، وتقْديمٍ وتأخيرٍ، وتعْريفٍ وتنْكيرٍ، وإظْهارٍ وإضمارٍ،...، ويكْشِفُ عنْ أسرارِ التَّعبيرِ بأنماطِها المُختلِفةِ، منْ حيثُ مُناسبتُها لأحْوالِ الكلامِ، ومطابقتُها للمقامِ، ويقُومُ الآخرُ على تتبُّعِ صحَّةِ هذهِ التَّراكيبِ وسلامتِها، وترتِيبِ أجزائِها، والأديبُ يتصرَّفُ في بناءِ الجُمَلِ أوِ التَّراكيبِ، حسبَ دلالتِها البلاغيَّةِ، ومهاراتِهِ الإبلاغيِّةِ، وقدْ يَعْدِلُ عنْ استِعمالِ تركيبٍ أصليٍّ إلى تركيبٍ آخرَ؛ لأهدافٍ ساميةٍ، وأسْرارٍ بلاغِيّةٍ.

ومنْ هذا العُدُولِ ما يُسمَّى بِـ(قلْبِ النَّعْتِ)، أوِ (العُدُولِ عَنْ صُورةِ النَّعْتِ إلَى صُورةِ الإضافةِ)، وهو إضافةُ الصِّفةِ إلى الموصوفِ بعدَ أن كانتْ تابِعةً لهُ في الأصْلِ، فيصيرُ تركيبًا إضافيًّا بعد أنْ كانَ تركِيبًا نعتيًّا، وهذا العُدُولُ لهُ أسرارٌ بلاغيَّةٌ، ومعانٍ جليلةٌ يقْصِدُها الأدِيبُ، ويرمِي إلى تحقيقِها، وكيفَ لا وقدْ وردَ هذا العُدُولُ في أسْمى كلامٍ، وهو القُرآنُ الكريمُ –جلَّ مَنْ أنْزَلَهُ– كما سيتَّضِحُ بعدُ.

وفِكْرةُ العُدُولِ عَنْ صُورةِ النَّعْتِ إلَى صُورةِ الإضافةِ هذهِ طرأتْ على ذِهْنِي مُنْذُ إعدادِ رسالتِي لمرحلة العالميَّة (الدكتوراه)؛ حيث كُنْتُ أتناولُ كِتابَ "سِحْرِ البلاغةِ وسرِّ البراعةِ للإمامِ الثعالبيِّ المُتوفَّى سنةَ ٤٢٩هـ"، بالتَّحليلِ البلاغيِّ؛ إذْ كانتْ هذهِ ظاهرةً شائعةً في مقالاتِ الثَّعالبيِّ في ذلكَ الكِتابِ محلَّ الدراسةِ في تِلكَ المرْحلةِ، وظلَّتْ هذه الظاهرةُ عالِقةً في ذِهْنِي، تساءلتُ مع نفسي كثيرًا لماذا يلجأُ الكاتِبُ أو الشَّاعِرُ إلى هذا العُدولِ عنِ التَّركِيبِ النَّعتِيِّ

إلى التَّركِيبِ الإضافيِّ بين الصِّفةِ وموصُوفِها؟، أيأتي ذلكَ عابِرًا؟، أمْ أنَّ لهُ أغراضًا تطلُبُهُ، ومقاماتٍ تسْتدْعِيهِ؟.

وفي أثناءِ تلكَ المرحلةِ منْ إعدادِ رسالتي (الدكتوراه)، اطَّلعْتُ على كِتابٍ للدكتور/ عصام عبد المُنصفِ أبو زيدٍ، بعنوان "فاعليَّة المعنى النَّحْويِّ في بِناءِ الشِّعْرِ عند محمود حسن إسماعيل- دراسة نصيَّة للتوابع"، وطالعْتُ فيهِ عُنوانًا هو "إضافةُ النَّعتِ إلى المنعُوتِ"، فترسَّختْ لديَّ هذهِ الفِكْرةُ، وقرَّرْتُ أنْ أدرُسَ هذه الظاهرةَ في شعرِ ذلكَ الشاعرِ "محمودِ حسنِ إسماعيلَ"، وبالبحثِ والتَّنقيبِ وجدتُّ أنَّ لهُ نِتاجًا شعريًّا ضَخمًا، يقعُ في أربعةَ عشرَ ديوانًا، طالعْتُ أغلبَها، ضِمنَ أعمالِهِ الشِّعريَّةِ الكاملةِ، ووجدتُّ استخْدامَ محمودِ حسنِ إسماعيلَ العُدُولَ عَنْ صُورةِ النَّعْتِ إلَى صُورةِ الإضافةِ بكثرةٍ مُتنوِّعةٍ، وبالمُطالعةِ والتَّأمُّلِ لمْ أجدْ قصيدةً جمعتْ هذا الكمَّ مِنْ إضافةِ النَّعْتِ إلى المنعُوتِ مثلَ هذه القصيدةِ محلَّ الدراسةِ "دُنيا أدْمُعٍ ومآتِمَ"؛ حيثُ ذُكِرَ فيها العُدُولُ من صُورةِ النَّعْتِ إلى صُورةِ الإضافةِ في اثْنَيْ عَشَرَ موضِعًا، فعزمْتُ على تناوُلِها بالدِّراسةِ البلاغيَّةِ.

أمَّا كِتابُ الدكتورِ/ عبد المُنصفِ أبو زيدٍ؛ فهو دراسةٌ نحويَّةٌ دلاليَّةٌ للتوابِعِ في شِعْرِ محمودِ حسنِ إسماعيلَ، وقد أشار إلى وُجودِ تلكَ الظاهرةِ في شعرِهِ، دونَ تناوُلٍ لها بالدِّراسةِ البلاغيَّةِ، أو حصرٍ لها في شِعرِ الشاعِرِ.

وهذهِ القصيدةُ اتَّبعْتُ فيها المنهجَ الاستِقْرائيَّ الوصْفيَّ الإحْصائيَّ التَّحليليَّ؛ حيثُ طالعْتُ القصيدةَ مُطالعةً مُتأمِّلةً، وقرأتُها قراءةً مُتأنِّيةً، واسْتخْرجْتُ مِنْها مواضِعَ العُدُولِ عَنْ صُورةِ النَّعْتِ إلَى صُورةِ الإضافةِ الَّتِي وردتْ على لِسانِ الشَّاعِرِ في هذهِ القصيدةِ الغزليَّةِ الباكيةِ الحزينةِ، وأحْصيْتُها كُلَّها، ثُمَّ جاء دوْرُ التَّحْليلِ البلاغيِّ لِتلْكَ المواضِعِ؛ لأبيِّنَ السِّرَّ البلاغِيَّ في هذا القلبِ النَّعْتِي.

ولمْ أغفلْ توضِيحَ بِنيةِ النَّصِّ النَّحويَّةِ؛ فلا يُمكِنُ فهمُ تركيبٍ مَّا إلا منْ خِلالِ بِنيتِهِ النَّحْويَّةِ، وسياقِهِ الَّذِي وردَ فيهِ.

خُطَّةُ البحثِ:

قسَّمتُ البحثَ إلى مقدِّمةٍ، وتمهيدٍ، ومبحثٍ، وخاتمةٍ، وذلك على النَّحْوِ الآتي:

●**تمهيدٌ** فيه نُبذةٌ عنْ معنى العُدُولِ، وعنِ النَّعْتِ في العربيَّةِ؛ تعريفِهِ- أغْراضِهِ- إضافةِ الصِّفةِ إلى الموصُوفِ والعكسِ- ذكرِ خلافِ النُّحاةِ في ذلك.

●**ثُمَّ** نُبذةٌ عن الشَّاعِرِ محمودِ حسنِ إسماعيلَ؛ مولدِهِ- نشأتِهِ- ثقافتِهِ وأثرِها في تكوينِ عالَمِهِ الشِّعريِّ.

●**مبحثٌ بعنوان:** العُدُولُ عَنْ صُورةِ النَّعْتِ إلَى صُورةِ الإضافةِ في قصيدةِ "دُنيا أدمُعٍ ومآتِمَ" لمحمودِ حسنِ إسماعيلَ، نظرةٌ بلاغيَّةٌ.

●**الخاتمة:** ذكرتُ فيها أهمَّ النتائجِ التي توصَّلْتُ إليها في هذا البحث.

***

التَّمْهيدُ

أوَّلا: نُبذةٌ عنْ معْنى العُدُولِ، وعنِ النَّعْتِ في العربيَّةِ؛ تعريفِهِ- أغْراضِهِ- إضافةِ الصِّفةِ إلى الموصُوفِ والعكسِ- ذكرِ خلافِ النُّحاةِ في ذلك.

مَعنَى العُدُولِ في اللغةِ:

العُدُولُ في لُغةِ العربِ مِنْ "عَدَلَ عَنِ الشَّيْءِ يَعْدِلُ عَدْلًا وَعُدُولًا: حَادَ، وَعَنِ الطَّرِيقِ: جَارَ، وَعَدَلَ إِلَيْهِ عُدُولًا: رَجَعَ، وَعَدَلَ الطَّرِيقُ: مَالَ"(١).

والعُدُولُ في اصْطِلاحِ البلاغيِّينَ:

ذكرَ الإمامُ عبدُ القاهِرِ الجرجانيُّ (ت٤٧١هـ) تعريفَ العدْلِ في شرحِهِ لكلامِ شيْخِهِ أبِي عليّ الفارسيِّ (ت ٣٧٧هـ)، فقال: " اعْلَمْ أنَّ العَدْلَ أنْ تذْكُرَ لفظًا، وتُريدُ غيرَهُ، نحوَ أنْ تقولَ: عُمرُ، والمقْصُودُ عامرُ، وهذا هُوَ الفرْعِيَّةُ..."(٢).

وعرَّفَهُ السَّكَّاكيُّ (ت ٦٢٦هـ)، بقولِهِ: "العَدْلَ" في بابِ القابلِ أوِ المُعْربِ، عندَ حديثِهِ عنْ أنواعِ المُعْربِ، وأنَّ ههُنا أمُورًا تسعةً تُسمَّى أسبابَ منْعِ الصَّرْفِ؛ وعدَّ منْها العدلَ، وقالَ فِي تعْرِيفِهِ: "تغييرُ الصِّيغةِ بِدُونِ تغْيِيرِ معْناها، كتغْيِيرِ نحْوِ: عامرٍ وحاذِمةٍ في الأعْلامِ، وواحدٍ وأحدٍ إلى عشرةٍ في غيْرِها، إلى عُمرَ وحذامِ، وإلى مُوحدٍ أو آحاد إلى معشرٍ أو عشارٍ"(٣).

إذنْ فالعُدُولُ خُروجٌ عن نَّمطٍ مألُوفٍ إلى نمطٍ آخرَ؛ لاعتِباراتٍ مُعيَّنةٍ.

تعْريفُ النَّعْتِ:

النَّعْتُ أحدُ التَّوابِعِ الخمْسَةِ الَّتِي لا تقعُ أرْكانًا أساسيَّةً في الجُملةِ، وإنَّما تكونُ فُرُوعًا تابِعةً لِما قبْلَها، والتَّوابِعُ "هيَ الأسْماءُ الَّتِي لا يَمسُّها الإعْرابُ

(١) لسانُ العرب، لابن منظور، دار المعارف – القاهرة، د.ت، مادة (عدل).

(٢) كتابُ المُقتصد في شرح الإيضاح، للإمام عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ)، تحقيق: د/ كاظم بحر المرجان، مجلد١/ ١٠٠٧، الجمهورية العراقية – منشورات وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، ١٩٨٢م.

(٣) مفتاح العلوم، لأبي يعقوب يوسف بن محمد بن عليّ السَّكَّاكيّ (٦٢٦هـ)، تحقيق: د/ عبد الحميد هنداوي، صـ١٣٦، دار الكتب العلميَّة– بيروت، ١٤١٨هـ.

إلَّا على سبيلِ التَّبَعِ لغيْرِها، وهِيَ خَمْسةُ أضْرُبٍ: تأكيدٌ، وصِفةٌ، وبدلٌ، وعطْفُ بيانٍ، وعطْفٌ بحرْفٍ"(١).

والمُـرادُ بالنَّعْـتِ "التَّـابِعُ المَقْصُـودُ بالاشـتِقاقِ وضْـعًا أو تـأويلًا، مَسُـوقًا لِتخْصِـيصٍ، أو تعْمِـيمٍ، أو تفصـيلٍ، أو مـدْحٍ، أو ذمٍّ، أو تـرحُّمٍ، أو إبْهـامٍ، أو توكيدٍ"(٢).

هذا حدُّ النَّعتِ، وبيـانُ أغراضِـهِ، والمُتكلِّمُ يسْتخْدِمُ النَّعْتَ لغرضٍ منْ أغراضٍ مُتعدِّدةٍ يُفيدُها النَّعْتُ بِحسبِ المقامِ، وهذهِ الأغْراضُ يتطلَّبُها المَنْعُوتُ مِنْ أجْلِ أنْ يَتِمَّ ويكْمُلَ، وهذا ما يَعْنِيهِ النَّحْوِيُّونَ بقوْلِهِم في تعْريفِ النَّعْتِ: (التَّابِعُ الَّذي يُتمِّمُ مَتْبُوعَهُ)(٣)، و"النَّعْتُ يَجرِي مَجْرِيَيْنِ؛ أحدُهُما تخْليصُ اسْمٍ منِ اسْمٍ، كقوْلِنا: "زَيْدٌ العطَّارُ"، و "زيْدٌ التَّمِيمِيُّ"، خلَّصْناهُ بِنعْتِهِ من الَّذي شاركَهُ في اسمِهِ، والآخَرُ على معْنى المدْحِ والذَّمِّ، نحو: "العاقِلُ"، و"الجاهلُ"(٤).

وعرَّفَهُ السُّيُوطِيُّ(ت ٩١٤هـ) بأنَّهُ "تابعٌ مُكمِّلٌ لمتبُوعِهِ؛ لدلالتِهِ على معنًى فيهِ، أو في مُتعلِّقٍ بِهِ"(٥).

(١) المُفصَّل في علم العربيّة، لأبي القاسم محمود بن عمر الزَّمخشريّ(ت ٥٣٨هـ)، تحقيق: د/ فخر صالح قدارة، ١١٤، دار عمَّار، عمَّان – الأردن، ط١، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.

(٢) شرح التسهيل، لابن مالك جمال الدين محمد بن عبد الله الطائيّ الجيَّانيّ الأندلسيّ(٦٠٠- ٦٧٢هـ)، تحقيق: د/ عبد الرحمن السيد، ود/ محمد بدوي المختون، ٣/ ٣٠٦، ط١، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤١٠هـ - ١٩٩١م.

(٣) التَّوابع في الجملة العربيَّة، د/ محمد حماسة عبد اللطيف، صـ٢٥، مكتبة الزهراء، القاهرة، ١٩٩١م.

(٤) الصَّاحبيّ في فقه اللُّغةِ العربيَّة وسائلِها، وسنن العربِ في كلامِها، للإمام أبي الحسين أحمد ابن فارس بن زكريَّا الرَّازيّ اللُّغويّ، تحقيق: د/ عمر فاروق الطَّبَّاع، صـ٨٩، مكتبة المعارف- بيروت، ط١، ١٩٤١٤هـ- ١٩٩٣م.

(٥) همع الهوامع في شرحِ جمعِ الجوامعِ، للإمام جلال الدين السيوطي (ت ٩١٤هـ)، تحقيق: د/ عبد العال سالم مكرم ، ٥/ ١٧١، دار البحوث العلميّة- الكويت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

إضافةُ الصِّفةِ إلى الموصُوفِ والعَكْسِ:

الأصْلُ في التَّرْكِيبِ النَّعْتِيِّ أَنْ تتْبَعَ الصِّفةُ موْصُوفَهَا "في أَحْوالِهِ، وجُمْلتُها عَشَرَةُ أَشْياءَ؛ هيَ رفْعُهُ، ونصْبُهُ، وخفضُهُ، وإفْرادُهُ، وتَثْنِيَتُهُ، وجمْعُهُ، وتنْكِيرُهُ، وتعْرِيفُهُ، وتذْكيرُهُ، وتأْنِيثُهُ"(١).

الصِّفةُ والموْصُوفُ شيءٌ واحدٌ؛ "لأَنَّهُما لعيْنٍ واحدةٍ، فإذا قُلتَ: "جاءنِي زيْدٌ العاقِلُ"، فالعاقِلُ هو زيْدٌ، وزيدٌ هو العاقِلُ، ألا ترى أَنَّكَ إذا سُئِلْتَ عنْ كُلِّ واحدٍ منهما، لجازَ أَنْ تُفسِّرَهُ بالآخرِ، فتقُولُ في جوابِ "مَنِ العاقِلُ؟": "زيدٌ"، وفِي جوابِ "منْ زيدٌ؟": "العاقِلُ"، فإذا كانتِ الصِّفةُ والموصُوفُ شيئًا واحِدًا؛ لمْ يَجُزْ إضافَةُ أحدِهِما إلى الآخَرِ، فلا تقولُ: "زيْدُ العاقِلِ"، و"هذا عاقلُ زيْدٍ" بالإضافةِ، وأحدُهما هو الآخَرُ"(٢).

وقدْ وردَ عنهُمْ ألفاظٌ ظاهِرُها مِنْ إضافةِ الموْصُوفِ إلى صِفتِهِ، والصِّفةِ إلى موْصُوفِها، والتَّأْويلُ فيها على غيْرِ ذلكَ، فمِنْ ذلكَ قوْلُهُمْ: "صلاةُ الأولى، ومسْجِدُ الجامِعِ، وجانِبُ الغرْبِيِّ، وبَقلةُ الحمقاءِ"، فهذه الأشياءُ حقُّها أنْ تكُونَ صفةً لـلأوَّلِ؛ إذِ الصَّلاةُ هي الأولى، والمَسْجدُ هو الجامِعُ، وإنَّما أُزيلَ عنِ الصِّفةِ، وأُضيفَ الاسْمُ إليهِ على تأويلِ أَنَّهُ صِفةٌ لموْصُوفٍ محذُوفٍ، والتَّقْديرُ: صلاةُ السَّاعةِ الأُولَى، يعْني منَ الزَّوالِ، ومسْجدُ الوقْتِ الجامِعِ، أوِ اليوْمِ الجامِعِ، وجانبُ المكانِ الغربِيِّ، وبقلةُ الحبَّةِ الحمقاءِ، فإنْ قُلتَ: الصَّلاةُ الأولى، والمسجدُ الجامعُ، فأجْرَيْتَهُ وصفًا لهُ؛ فهو الجيِّدُ والأكثرُ، وإنْ أضَفْتَ، فوجْهُهُ ما ذكرْناهُ، وهو قبيحٌ؛ لإقامتِكَ فيهِ الصِّفةَ مقامَ الموْصُوفِ، وليسَ ذلكَ بالسَّهْلِ(٣).

(١) شرحُ المفصَّلِ، للعلامة مُوفَّق الدين يعيش بن عليّ بن يعيش النَّحويّ المتوفَّى سنة ٦٤٣هـ، ٣/ ٥٤، الطباعة المنيرية، مصر، د.ت.

(٢) السَّابق، ٣/ ١٠.

(٣) شرحُ المفصَّلِ، ٣/ ١٠.

وقد تَعْرِضُ لهذا التَّرْكِيبِ النَّعْتِيِّ عَوارضُ؛ مِنها إضافةُ النَّعْتِ إلى المَنْعُوتِ، أو ما يُسمَّى بِـ (قَلْبِ النَّعْتِ)، أو إضافةِ الصِّفةِ إلى الموْصُوفِ.

قال ابْنُ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ (ت٧٥١هـ): "أضافُوا الموصُوفَ إلى الصِّفةِ وإنِ اتَّحدا؛ لأنَّ الصِّفةَ تضمَّنتْ معنًى ليسَ في الموصُوفِ، فصحَّتِ الإضافةُ للمُغايرةِ"(١).

"والعربُ إنَّما تفعلُ ذلكَ في الوصْفِ المعْرفةِ اللازِمِ للموْصُوفِ لُزُومَ اللَّقبِ للأعْلامِ، كما قالوا: "زيْد بطَّة" أيْ صاحبُ هذا اللَّقبِ؛ وأمَّا الوصْفُ الَّذي لا يَثْبُتُ، كالقائمِ والقاعدِ ونحْوه؛ فلا يُضافُ الموْصُوفُ إليْهِ؛ لِعدمِ الفائدةِ المُخصَّصةِ الَّتِي لأجْلِها أُضِيفَ الاسْمُ إلى اللَّقبِ، فإنَّهُ لمَّا تخصَّصَ بِهِ كأنَّكَ قُلْتَ: صاحِبُ هذا اللَّقبِ، وهكذا في (مسجِدِ الجامعِ)، و (صلاةِ الأُولى)، فإنَّهُ لمَّا تخصَّصَ الجامِعُ بالمسْجِدِ ولزِمَهُ، كأنَّكَ قُلْتَ: صاحبُ هذا الوصفِ، فلو قُلْتَ: (زيدُ الضَّاحكِ)، و(عمرو القائمِ) لمْ يَجُزْ، وكذا إنْ كانَ لازِمًا غيرَ معرفةٍ، فلا تقولُ: "(مسْجِدُ جامعٍ)، و(صلاةُ أولى)"(٢).

ذِكْرُ خلافِ النُّحاةِ في ذلكَ:

وقدِ اخْتلفَ كُلٌّ من الكوفِيِّينَ والبصْريِّينَ في إضافةِ الصِّفةِ إلى الموْصُوفِ؛ فذهبَ الكوفيُّونَ إلى أنَّهُ "يَجوزُ إضافةُ الشَّيءِ إلى نفْسِهِ إذا اخْتلفَ اللَّفظانِ، وذهبَ البصْرِيُّونَ إلى أنَّهُ لا يَجُوزُ"(٣).

أمَّا الكُوفيُّونَ "فاحتجُّوا بِمجيءِ ذلك في كتابِ اللهِ، وكلامِ العربِ كثيرًا؛ قال اللهُ – تعالى–: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴾ [الواقعة: ٩٥]، واليقينُ في المعنى نعْتٌ للحقِّ؛ لأنَّ الأصْلَ فيهِ الحقُّ اليقينُ، والنَّعْتُ في المعنى هو

(١) بدائع الفوائد، للإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بنِ أيوب ابن قيِّم الجوزيَّة، تحقيق: علي ابن محمد العمران، ١/ ٢٧، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، جدة، د.ت.

(٢) السَّابق، ١/ ٢٨.

(٣) الإنصاف في مسائل الخلاف، للإمام كمال الدّين أبي البركاتِ الأنباريّ(ت ٥٧٧هـ)، ٢/ ٤٣٦، مطبعة السعادة، مصر، ط٤، ١٣٨٠هـ- ١٩٦١م.

المنْعُوتُ، فأضافَ النَّعتَ إلى المنعوتِ، وهما بِمعنًى واحدٍ، وقالَ -تعالى-: ﴿ وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ. . .﴾[النحل: ٣٠]، والآخرةُ في المعنى نعتُ الدَّارِ، والأصلُ فيهِ وللدَّارُ الآخرةُ خيرٌ، فأضافَ (دار) إلى الآخرة، وهُما بمعنًى واحدٍ"(١).

وأمَّا البصْرِيُّونَ "فاحتجُّوا بأنَّ ذلك لا يجُوزُ؛ لأنَّ الإضافةَ إنَّما يُرادُ بها التَّعْريفُ والتَّخْصيصُ، والشَّيءُ لا يتعرَّفُ بنفسِهِ؛ لأنَّهُ لو كانَ فيهِ تعريفٌ كانَ مُسْتغْنِيًا عنِ الإضافةِ، وإن لَّمْ يكنْ فيهِ تعريفٌ كانَ بإضافتِهِ إلى اسمِهِ أبعدَ من التَّعريفِ؛ إذْ يستحيلُ أنْ يصيرَ شيئًا آخرَ بإضافةِ اسمِهِ إلى اسْمِهِ؛ فوجبَ أن لَّا يجوزَ كما لو كانَ لفظُهُما مُتَّفِقًا"(٢).

والرَّأيُ الرَّاجحُ هُوَ رأيُ الكُوفيِّينَ، الَّذينَ ذهبوُا إلى جوازِ إضافةِ الصِّفةِ إلى الموْصُوفِ، وجوازِ إضافةِ الموصُوفِ إلى الصِّفةِ.

ويُردُّ على البصْريِّينَ بأنَّ قوْلَهُمْ ليْسَ دقيقًا؛ فإضافةُ الصِّفةِ إلى الموصُوفِ صحيحةٌ فصيحةٌ؛ لأنَّ تِلكَ الإضافةَ قدْ وردتْ في القُرْآنِ الكريمِ، وهُوَ أصْدقُ كلامٍ، وأفْصحُ بيانٍ، وعليْهِ يُعتمدُ، حيْثُ وقعَ إضافةُ الصِّفةِ إلى موصُوفِها كثيرًا في القرآنِ الكريمِ، مِنْها قولُهُ- تعَالى-: ﴿ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾[البقرة: ١٠٨]، وقولُهُ -سُبحانَه-: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وقولُهُ -جلَّ شأنُهُ-: ﴿ سَنَجْزِي ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾[الأنعام: ١٥٧]، وقولُهُ -عزَّ وجلَّ-: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [النحل: ٩]، وقولُهُ -تعالى-:﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ ﴾ [فاطر: ٨]، وغيرُها.

(١) السَّابق، ٢/ ٤٣٦، ويُنظر: دراساتٌ لأسلوب القرآن الكريم، للشيخ محمد عبد الخالق عضيمة، ٣/ ٢٧٩ وما بعدها، دار الحديث- القاهرة، ١٣٩٢هـ- ١٩٧٢م.
(٢) السَّابق، ٢/ ٤٣٧، ٤٣٨.

كمـا وردَ العُـدُولُ بالنَّعْـتِ إلـى الإضـافةِ فـي كـلامِ الصَّـادِقِ المَصْـدوقِ- ﷺ-، ومِـنْ ذلـكَ قوْلُـهُ - ﷺ-: "بُعِثْـتُ بجَوامِـعِ الكَلِـمِ، ونُصِـرْتُ بالرُّعْبِ..."(١)، وقـوْلُهُ -ﷺ-: " يَأْتِي فِي آخِرِ الزَّمَانِ قومٌ، حُدَثَاءُ الأسْنانِ، سُفَهاءُ الأحْلامِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ البَرِيَّةِ..." (٢)، وكذلكَ قوْلُهُ-ﷺ-: "يَعْقِدُ الشَّـيْطانُ عَلَـى قافِيـةِ رأْسِ أحَـدِكُمْ إذا هُـوَ نَـامَ ثَـلاثَ عُقَـدٍ، يَضْـرِبُ كُـلَّ عُقْـدَةٍ مَكانَها: عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ، فَإنِ اسْتَيْقظَ فَذَكَرَ اللهَ انْحلَّتْ عُقْدةٌ، فَإنْ توضَّأَ انْحلَّتْ عُقْدةٌ، فَإنْ صَلَّى انْحلَّتْ عُقَدُهُ كُلُّها، فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ، وإلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلانَ"(٣).

وقـدْ وردَ العُـدُولُ عـنْ صُـورةِ النَّعْـتِ إلـى صُـورةِ الإضـافةِ فِـي الأدبِ العربـيِّ شِـعرِهِ ونثْـرِهِ؛ فمِنَ الشِّـعْرِ قَوْلُ الإمامِ الشَّافعِيِّ (ت ٢٠٤هـ)-رضـيَ اللهُ عنهُ-(٤):

١- ما فِـي المُقَامِ لِـذِي عَقْـلٍ وذِي أدبِ ... مِـنْ راحَـةٍ، فَـدَعِ الأوطَـانَ واغْتَـرِبِ
٢- سَـافِرْ تَجِـدْ عِوَضًـا عمَّـنْ تُفارِقُـهُ ... وانْصَبْ؛ فَإنَّ لَذِيذَ العَيْشِ فِي النَّصَبِ

وقَوْلُ أبي تمَّامٍ (ت٢٣١هـ)(٥):

١- السَّيْفُ أصْـدقُ أنْباءً مِـنَ الكُـتُبِ ∴ فِـي حـدِّهِ الحَـدُّ بـينَ الجِـدِّ واللَّعِـبِ

(١) جُزءٌ من حديثٍ في كتاب الجهاد والسيرِ، أخرجهُ البُخاريُّ في صحيحِه، عنْ أبي هُريرةَ – رضي اللهُ عنه-، بابُ قولِ النبيِّ- ﷺ -: "نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شهْرٍ"، حديث رقم: (٢٩٧٧).

(٢) جُزءٌ من حديثٍ في كتاب المناقِبِ، أخرجهُ البُخاريُّ في صحيحِه، عنْ عليٍّ – رضي اللهُ عنه-، بابُ علاماتِ النُّبُوَّةِ في الإسْلامِ، حديث رقم: (٣٦١١).

(٣) أخرجهُ البُخاريُّ في صحيحِه، كتاب بدءِ الخلْقِ، عنْ أبي هُريرةَ – رضي اللهُ عنه-، بابُ صفة إبليسَ وجنُودِه، حديث رقم: (٣٢٦٩).

(٤) هذانِ البيتانِ مطلعُ قصيدةٍ قالها الإمامُ الشَّافعيُّ -رحمه الله- بعنوان: "دعِ الأوطان واغترب"، ديوان الشَّافعيّ، تحقيق د/ محمد عبد المنعم خفاجي، صـ٥٤، ط٢، مكتبة الكليات الأزهرية- القاهرة، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.

(٥) هذانِ البيتانِ مطلعُ قصيدةٍ قالها أبو تمَّامٍ في مدحِ المُعتصِمِ باللهِ أبي إسحاقَ محمد بن هارون الرشيد، ويذكر حريق عمُّوريَّة وفتحَها، ديوان أبي تمَّام بشرح الخطيب التَّبريزيّ، تحقيق محمد عبده عزام، مجلد١/ صـ٤٠، ط٥، دار المعارف- القاهرة، د.ت.

٢- بِيضُ الصَّفائِحِ لا سُودُ الصَّحائِفِ فِي ∴ مُتُونِهِنَّ جِلاءُ الشَّكِّ والرِّيَبِ

ومِنَ النَّثْرِ قولُ أبي منصُورٍ الثَّعالبِيِّ (ت٤٢٩هـ) في مقالةٍ بعُنوان: (شكوى الإعْراضِ والجفاءِ وسُوءِ العهْدِ): "....فُلانٌ عَلَى قَدْرِ عُلُوِّ سِنِّهِ انْخِفاضُ وُدِّهِ، وبِحَسبِ عَبَالَةِ جِسْمِهِ نَحافَةُ عَهْدِهِ..." (١).

***

هذا، والعُدُولُ عَنْ صُورةِ النَّعْتِ إلَى صُورةِ الإضافةِ لهُ أثرٌ بليغٌ في بِناءِ النَّصِّ اللُّغويِّ، ودورٌ مُهِمٌّ في تأْليفِ الكلامِ، وترابُطِ أجزاءِ النَّصِّ، وتماسُكِ تراكِيبِهِ، وربْطِ ألفاظِهِ بِمعانِيها، وإضافةُ الصِّفةِ إلى الموْصُوفِ (أشبهُ بأنْ يكونَ نوعًا منْ تلْوِينِ البيانِ، وتكْثِيرِ الصُّورِ التَّعبيريَّةِ لإثْراء اللُّغةِ، وقدْ يكُونُ الدَّاعي إلى ذلكَ مُتطلَّباتُ الإيقاعِ في النَّظْمِ والنَّثْرِ على حدٍّ سواءٍ)(٢)، والعُدُولُ عَنْ صُورةِ النَّعْتِ إلَى صُورةِ الإضافةِ لوْنٌ مِنْ ألْوانِ خُروجِ الكلامِ على خِلافِ مُقتضى الظَّاهِرِ، وصُورةٌ مِنْ صُورِ العُدُولِ عنِ النَّمطِ، وفي تِلْكَ الإضافةِ إيجازٌ في التَّعْبِيرِ؛ إذِ المُضافُ والمُضافُ إليْهِ كالكلِمةِ الواحِدةِ، بِخِلافِ النَّعْتِ التَّابِعِ للمَنعُوتِ، فهُما كلمتانِ.

***

(١) يُنظر: سحر البلاغة وسر البراعة، لأبي منصُورٍ الثَّعالبِيِّ (ت ٤٢٩هـ)، تحقيق: د/ درويش جويدي، ١٥٤، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م.

(٢) التركيب النَّعتيّ في العربيَّة دراسة في القرآن والشعر، د/ السيد علي خضر، صـ٧٩، ٨٠ بتصرُّف، بحثٌ منشورٌ في مجلة الآداب- جامعة المنصورة، العدد ٢٧، أغسطس، ٢٠٠٠م.

•ثانيًا: نُبذةٌ عن الشَّاعِرِ محمود حسن إسماعيل (١٣٢٨- ١٣٩٧هـ- ١٩١٠- ١٩٧٧م)؛ مولدِهِ- نشأتِهِ- ثقافتِهِ وأثرِها في تكوينِ عالَمِهِ الشِّعريِّ.

وُلِدَ محمودُ حسنُ إسماعيلُ ببلْدةِ النَّخيلةِ بمُحافظةِ أسيوط، واتَّجهَ في دراستِهِ وجْهةً عربيَّةً إسلاميَّةً، حتى تخرَّج في دارِ العُلومِ سنةَ ١٩٣٦م، وقدْ نبغَ في الشِّعرِ نُبوغًا مُبكِّرًا؛ حتَّى أصْدرَ ديوانَهُ الأوَّلَ "أغاني الكُوخِ" وهو طالبٌ سنةَ ١٩٣٥م، ثُمَّ تتابعتْ دواوِينُهُ "هكذا أُغنِّي"، و "أيْنَ المفرُّ"، و "نارٌ وأصْفادٌ"، و"قاب قوسيْن"، و "لا بُدّ"، و "التَّائِهون"، و "صلاةٌ ورفضٌ"، وقدْ تدرَّجَ في الوظائِفِ الحُكُوميَّةِ مِنْ مُحرِّرٍ بالمجمعِ اللُّغويِّ، إلى أنْ أصبحَ المُستشارَ الثَّقافيَّ لِهيئةِ الإذاعةِ، ونالَ جائزةَ الدَّوْلةِ في الشِّعرِ سنةَ ١٩٦٥م(١).

وهو شاعرٌ فحلٌ، نبغَ في الشِّعْرِ نُبُوغًا مُبكِّرًا، وكانَ فارعَ الطُّولِ، مُمْتلئَ القوامِ، ذا بَشْرةٍ صَعيدِيَّةٍ سمْراءَ، ورأْسٍ كبيرٍ، ... وكانَ قليلَ الأصْدقاءِ، يُؤْثِرُ العُزْلةَ والتَّأمُّلَ، وفي شِعرِهِ ما يُتغنَّى بِهِ(٢).

ومعلومٌ أنَّ للبيئةِ التي نشأ فيها أثرًا كبيرًا في تشْكِيلِ وجْدانِهِ، وتكْوينِ شاعِريَّتِهِ، وتطوُّرِها، وصقْلِ موْهبتِهِ الأدبيَّةِ؛ إذْ نَشأَ في القرْيةِ بينَ الغيطِ ومشارِفِ نهْرِ النِّيل، كما يقولُ عن نفْسِهِ:

"عِشْتُ في قرْيتِنا السنواتِ الأُولى...، ولمْ أكُنْ في مُعظمِ الوقْتِ مع أهْلِي في الكُوخِ، بلْ كُنتُ أعيشُ في الغيطِ(٣) على مشارِفِ النِّيلِ جنوبَ "أبو

(١) تطوُّر الأدب الحديث في مصر من أوائل القرنِ التاسعَ عشرَ إلى قيامِ الحربِ الكُبرى الثانية، د/ أحمد هيكل، صـ ٣١٥، دار المعارف- القاهرة، ط٦، ١٩٩٤م.

(٢) يُنظر: ذيلُ الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجالِ والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، أحمد العلاونة، ٢٠٦، دار المنارة – جدَّة، ط١، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م، ويُنظر: مُعجم الشعراء من العصر الجاهلي حتى سنة ٢٠٠٢م، كامل سليمان الحبوري، ٥/ ٣٢٢، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠٠٣م.

(٣) الغَيْطُ: المُطْمئِنُّ الواسعُ مِنَ الأَرْضِ، ويُطْلِقُهُ أهلُ مِصرَ علَى الحقْلِ، والجمعُ غِيطانٌ. المُعجمُ الوسيط: غوطَ.

تيج"، أُشاركُ في العملِ؛ أَعْزَقُ[١] الأرضَ، وأَبذُرُ الحَبَّ، وأُتابعُ البذْرةَ مُنذُ غرْسِها حتَّى الحصادِ، وتعلَّمتُ في "الخُصِّ[٢]"، ودرسْتُ فيهِ، وتقدَّمْتُ إلى امتحانِ شهادةِ البكالوريا من الخارجِ، وحصلْتُ عليها – نظامَ دارِ العُلومِ–، ثُمَّ وصلْتُ إلى القاهرةِ لأدخُلَ دارَ العلومِ، وكُنْتُ أقرأُ في "الخُصِّ" الصُّحُفَ، وخاصَّةً البلاغَ الأُسْبُوعيَّ، وهو المُلحقُ الأدبيُّ الذي كانت تُصْدِرُهُ أُسبُوعيًّا جريدةُ البلاغِ"[٣].

وقدْ تعدَّدتْ أوجُهُ نشاطِهِ الأدبيِّ؛ حيثُ كتبَ في الصُّحُفِ والمجلَّاتِ مُنذُ سنةِ ١٩٣٢م، وعمِلَ مُشرِفًا على مجلَّةِ الشِّعرِ المِصريَّةِ سنةَ ١٩٥٦م، وشارك في مُعظَمِ مهرجاناتِ دارِ العلومِ الشِّعريَّةِ السَّنويَّةِ بأروعِ قصائِدِهِ، واخْتِيرَ عُضوًا للوفْدِ الرَّسْمِيّ للأُدباءِ المصريِّينَ في شتَّى المؤتمراتِ الشِّعريَّةِ والأدبيَّةِ العربيَّةِ، وغيرِها من الجمعيَّاتِ الأدبيَّةِ[٤].

وقدْ أكْثرَ منَ الشِّعْرِ كثْرةً بالِغةً؛ حتَّى وصَلَ مجموعُ شِعرِهِ أربعةَ عشَرَ ديوانًا، ودواوِينُهُ موْسُوعةٌ شِعْريَّةٌ يُمْكِنُ أنْ تكْشِفَ عنْ بحْرٍ عميقٍ زاخِرٍ بالشِّعْرِ الرَّائِعِ، وواحةٍ فسيحةٍ مُزْدَانةٍ بِكُلِّ صُورِ الجمالِ والسِّحْرِ الحلالِ، وإنَّهُ شعْرٌ فيهِ أصالةٌ وتجديدٌ، وفيهِ رقَّةٌ وعُذُوبةٌ، وفيهِ واقعٌ وخيالٌ، وتجاربُ صادقةٌ، وعواطفُ جيَّاشةٌ، وهذا الشِّعرُ في ريعانِ خُصُوبتِهِ، وهو جديرٌ بالبحثِ والدِّراسةِ في مُختلفِ أبعادِهِ وجوانِبِهِ[٥].

و"محمودُ حسنُ إسماعيلُ يتميَّزُ عنْ كُلِّ أبْناءِ جِيلِهِ بِأنَّ لهُ قامُوسًا شِعرِيًّا

(١) عَزَقَ الأرْضَ عَزْقًا: شقَّها، والمِعْزَقُ والمَعْزَقةُ: آلةٌ كالقَدُومِ أو أكبرُ لِعزْقِ الأرْضِ. المُعجمُ الوسيط: عزق، والقاموس المُحيط: عزق.

(٢) الخُصّ : بَيْتٌ مِنْ شَجَرٍ أَوْ قَصَبٍ.

(٣) التَّصْويرُ الفنِّيّ في شعر محمود حسن إسماعيل، د/ مصطفى السعدني، صـ١٦، منشأة المعارف بالإسكندريّة، د.ت.

(٤) السابق، ١٨، ١٩.

(٥) يُنظر: الريف المصري في شعر محمود حسن إسماعيل، د/ محمد عبد الحميد السيد غنيم، صـ٣٢٢، ٣٢٣، بحث منشور في مجلة كلية اللغة العربية بالزقازيق، العدد ٢١، سنة ٢٠٠١م.

خاصًّا، وخيالًا مُجنَّحًا، ورُؤْيةً كوْنيَّةً مُنْفردةً، ولعلَّ هذهِ السِّماتِ هِيَ الَّتِي جَعلتْ لِرُؤيتِهِ الشِّعْرِيَّةِ طابَعًا جديدًا، ولِألفاظِهِ وتَعْبِيراتِهِ وصُورِهِ مذاقًا خاصًّا، ولِتَجْرِبتِهِ الشِّعْرِيَّةِ جاذبيَّةً عميقةً، وتأثيرًا بعيدًا"(١).

وبعْدَ أنْ أحِيلَ إلى المعاشِ سافَرَ إلى الكُوَيْتِ، لِيعْملَ خبِيرًا بإدارةِ بُحُوثِ المناهِجِ بوزارةِ التَّربيةِ بِها، تُوُفِّيَ – رحِمهُ اللهُ– في ٢٥مِنْ أبريلَ، ١٩٧٧م(٢).

***

(١) محمود حسن إسماعيل مدخل إلى عالَمِهِ الشِّعْريّ، د/ عبد العزيز الدسوقي، صـ١٥، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٨م.

(٢) التَّصْويرُ الفنِّيّ في شعر محمود حسن إسماعيل، د/ مصطفى السعدني، صـ١٨.

مبحثٌ

العُدُولُ عنْ صُورةِ النَّعْتِ إلى صُورةِ الإضافةِ قصيدةُ "دُنيا أدمُعٍ ومآتِمَ" لمحمودِ حسنِ إسماعيلَ، نظرةٌ بلاغيَّةٌ

إنَّ المُتتبِّعَ لدواوينِ محمودِ حسنِ إسماعيلِ؛ يجدُهُ قدْ أكْثَرَ في شِعْرِهِ مِنْ أُسْلُوبِ " العُدُولِ عَنْ صُورةِ النَّعْتِ إلَى صُورةِ الإضافةِ "، فِي مواضِعَ عديدةٍ؛ مِنهَا –على سبيلِ المِثالِ– قوْلُهُ:

يَـــا عَرُوسًـــا لـــمْ تُزَيِّنْهـــا يـــدٌ ∴ غَيْـرُ كَـفِّ الْمُبْـدِعِ الفـنِّ الصَّـنَّاعْ
عَقَـــدَتْ إِكْلِيلَهَـــا مِـــنْ سَوْسَـــنٍ ∴ بَاهِـتِ الأَفْـوافِ، تُبْـرِئُ القِنَـاعْ
مُسْتَـعَارٍ مِـنْ ضَـنَـى الْعِـشْـقِ، ومِـنْ ∴ لَوْعَـةِ الْهَجْـرِ ومِـنْ لَـوْنِ الْـوَدَاعْ[١]

وَقوْلُهُ:

شَـرَفُ الجِهـادِ عَقِيـدةٌ لَـمْ يُغْوِهـا ∴ بهـــجُ الحلـــى وبَهْـــرجُ الأَفْـــوافِ
يـا أُمَّـةً يُسْـقَى المُـداهنُ بيْنهـا ∴ شَـهْدَ المُنَـى، والحُـرُّ كـأسَ زُعـافِ
ويَعِـيشُ أحْـرارُ العُقُـولِ بِظلِّهـا ∴ غُربـاءَ مـنْ عَنـتِ الزَّمـانِ الجـافِي[٢]

وَقوْلُهُ:

والْحُورُ مُنْتفِضُ الغدائِرِ راقِصٌ ∴ نشْـوانُ مِـنْ رجْـعِ الغِنـاءِ مُطيَّـرُ
قلـبٌ كَـأنَّ النِّيـلَ أرْضَـعهُ النَّـدَى ∴ فِـي الْمَهْـدِ قُدْسِـيُّ الشِّـغافِ مُطَهَّرُ[٣]

وغيرُ ذلك منَ الأبْياتِ الَّتِي لا يتَّسِعُ المقامُ لِذِكْرِها، والَّتِي ورد فيها عُدُولٌ عنِ صُورةِ النَّعْتِ إلَى صُورةِ الإضافةِ ، نحو (نحْس الخطْوِ، سُود الذُّنُوبِ، عذْب اللَّحْنِ، رقيق الشَّدْوِ، حالك الظُّلُماتِ، صُمّ الصُّخُورِ، راسِياتِ الجبالِ، ثوائر العاصِفاتِ....)[٤]، وغيرها منَ الإضافاتِ.

---

(١) من قصيدةٍ بعنوان "كنز الذَّهب الأبيض"، في ديوان "أغاني الكوخ"، ضمن الأعمال الشعرية الكاملة لمحمود حسن إسماعيل، صـ ١٨.

(٢) من قصيدةٍ بعنوان "ويعيشُ أحرارُ العقولِ بظلِّها غُرباءَ"، في ديوان "هكذا أغنِّي"، السابق، صـ٢٨٤.

(٣) من قصيدةٍ بعنوان "في وادي النِّسْيان" قالها في ذكرى شاعِرِ النيل حافظ إبراهيم سنة ١٩٣٧م، في ديوان "هكذا أغنِّي"، السابق، صـ ٢٤٧، ٢٤٩.

(٤) يُنظر: فاعليَّة المعنى النحوي في بناء الشعر عند محمود حسن إسماعيل، د/ عصام عبد المُنصف أبو زيد، صـ١٨٤، دار غريب للطباعة والنشر– القاهرة، ط١، ٢٠١٠م.

هذهِ القصيدةُ – مَحلَّ الدِّراسةِ– لمْ يتطرَّقْ إليْها الدَّارسُونَ بدراسةٍ بلاغيَّةٍ تُبْرِزُ جوانِبَها البلاغيَّةَ الواردةَ فيها، ولا إلى العُدُولُ عَنْ صُورةِ النَّعْتِ إلَى صُورةِ الإضافةِ فيها.

ولقدْ وظَّفَ فِيها محمودُ حسنُ إسماعيلُ النَّعْتَ المُضافَ إلى منْعُوتِهِ توظِيفًا كبيرًا؛ حيثُ أوْردَهُ في اثْنَيْ عشَرَ موْضِعًا، وصُورتُهُ عُدولٌ عَنْ صُورةِ النَّعْتِ إلَى صُورةِ الإضافةِ، بإضافةِ الصِّفةِ إلى موْصُوفِها، وهذا التَّركِيبُ الإضافيُّ بينَ النَّعْتِ ومنعُوتِهِ لهُ دورٌ في تحقِيقِ تماسُكِ النَّصِّ؛ حيثُ إنَّ المُركَّبَ لا ينفكُّ، وهُو أسْرعُ إلى الفَهْمِ والذِّهْنِ، ومِنْ خِلالِهِ يتمكَّنُ المُتكلِّمُ مِنْ كَسْرِ الرَّتابةِ المعهُودةِ لصُورةِ النَّعْتِ لدَى المُتلقِّي، كما سيتَّضِحُ بعدُ.

ونظْرةً على ما وقعَ الاخْتِيارُ عليْهِ؛ ليكونَ أُنْمُوذجًا تطبيقيًّا على ما سبقتِ الإشارةُ إليهِ، تأتِي هذهِ القصيدةُ، التي تقعُ في ثلاثينَ بيتًا عمُوديًّا، وإلى القارئِ الكريمِ نصَّ القصيدةِ:

دُنْيَا أَدْمُعٍ وَمَآتِمَ(١)

إِلَى الَّذِينَ لَا تُشْجِيهِمْ تَأَوُّهَاتُ الْعَاشِقِينَ

١- حَزِينٌ؟ أَجَلْ.. وَالْحُزْنُ أَضْحَى مُنَادِمِي ∴ فَدُنْيَايَ دُنْيَا أَدْمُعٍ وَمَآتِمِ
٢- يَقُولُونَ: سَوَّدتَّ الْأَغَانِي وَبِشْرَهَا ∴ وَأَصْبَحْتَ تَهْذِي بِاللُّحُونِ الْقَوَاتِمِ
٣- خَيَالُكَ أَضْحَى ظُلْمَةً سَرْمَدِيَّةً ∴ تَرَامَتْ عَلَى لَيْلٍ مِنَ الْبُؤْسِ فَاحِمِ
٤- وَشِعْرُكَ هَدَّهُ الْمَآسِي، وَسَوَّدَتْ ∴ أَغَارِيدَهُ فِي الْحُبِّ بِيضُ الْمَعَاصِمِ
٥- تَضِجُّ عَلَى أُنْثَى تَجَافَتْكَ فِي الْهَوَى ∴ وَتَبْكِي بِدَمْعٍ مِنْ أَسَى الشَّوْقِ عَارِمِ؟
٦- وَتُفْنِي شَبَابًا فِي الْغَرَامِ وَذُلِّهُ ∴ وَشَكْوَاهُ مِنْ سِحْرِ الْعُيُونِ النَّوَائِمِ؟
٧- وَتُصبِحُ فِي الْأَكْوَانِ سُخْرِيَةَ الْوَرَى ∴ هَضِيمَ الْحَوَاشِي مُسْتَخَفَّ الْمَعَالِمِ!
٨- فَقُلْتُ لَهُمْ: لَا تُكْثِرُوا اللَّوْمَ إِنَّنِي ∴ تَحَيَّرْتُ فِي كَوْنٍ عَجِيبِ الْمَظَالِمِ
٩- شَقِيتُ بِحُبِّي وَهْوَ عَفٌّ مُطَهَّرٌ ∴ وَغَيْرِي سَعِيدٌ فِي الْهَوَى بِالْمَآثِمِ

(١) الأعمال الشعرية الكاملة، للشاعر محمود حسن إسماعيل، الديوان الثاني "هكذا أغني"، صـ١٥٧-١٦٠، ط١ – القاهرة – ١٩٣٨م.

١٠- تَعَلَّقْتُهَـا عَـذْرَاءَ يَنْـدَى حَـدِيثُهَا ∴ صَـفَاءً تَجَلَّـى مِـنْ عَفِيـفِ الْمَبَاسِـمِ
١١- هِيَ النُّورُ، أَوْ فِي النُّورِ مِنْهَا أَلَافَةٌ ∴ هِيَ السِّرُّ يَضْوِي فِي غُيُوبِ الطَّلَاسِمِ
١٢- إِذَا نَظَـرَتْ.. فَـاحْبِسْ بُخُـورَكَ دُونَهَـا ∴ فَقَـدْ سَـحَرَتْ سِـحْرَ الرُّقَـى وَالتَّمَـائِمِ
١٣- تَلَقَّيْـتُ مِنْهَـا وَحْـيَ شِـعْرِي سَـامِيًا ∴ وَأُلْهِمْـتُ مِنْهَـا خَالِـدَاتِ الْمَلَاحِـمِ
١٤- وَلَمَّـا تَلَاقَيْنَـا وَكَـادَ صَـفَاؤُنَا ∴ يُرَفِّـهُ مِـنْ وَجْـدِ الْقُلُـوبِ الْهَـوَائِمِ
١٥- تَصَـاوَحَتِ الْعِيـدَانُ فِـي جَنَّـةِ الْهَـوَى ∴ وَجَـافَى رَفِيـقُ اللَّحْـنِ عُـشَّ الْحَمَـائِمِ
١٦- وَبَـدَّلَتِ الْأَنْسَـامُ بَـيْنَ أَرَاكِهَـا ∴ فَحِـيحَ أَعَاصِـيرٍ، وَلَفْـحَ سَـمَائِمِ
١٧- كَـأَنَّ اخْـتِلَاجَ النُّـورِ فَـوْقَ حُطَامِهَـا ∴ مِـنَ الْأَلَـقِ الْخَـابِي تَهَاوِيـلُ وَاهِـمِ
١٨- وَغَيْسَـانَةِ الْأَفْيَـاءِ، وَهْنَانَـةِ الصِّـبَا ∴ مُشَـرَّدَةِ الْأَطْيَـابِ، رَيَّـا النَّسَـائِمِ
١٩- سَـأَلْتُ رُبَاهَـا: أَيْـنَ بُلْبُلُـكِ الَّـذِي ∴ تَغَنَّـى طَـوِيلًا فِـي الْمُـرُوجِ الْقَوَاسِـمِ؟
٢٠- فَأَطْرَقَـتِ الْأَغْصَـانُ حُزْنًـا، وَأَصْـبَحَتْ ∴ كَمُرْتَبِـكٍ مِـنْ حَيْـرَةِ الْفِكْـرِ وَاجِـمِ
٢١- وَقَالَـتْ: بَعِيـدٌ عَـنْ ظِلَالِـي مَكَانُـهُ ∴ هُنَـاكَ عَلَـى صُمِّ الصُّخُورِ الصَّلَادِمِ
٢٢- بِفَيْفَـاءَ مَـلَّ الصَّـمْتُ فِيهَـا مُقَامَـهُ ∴ نَسِـيلَ الْخَـوَافِي، مُسْـتَهَاضَ الْقَـوَادِمِ
٢٣- تُمَـزِّقُ أَرْوَاحُ الْهَجِيـرِ شِـغَافَهُ ∴ وَتُصْـلِيهِ مِـنْ لَفْـحِ السَّـوَافِي بِجَـاحِمِ
٢٤- وَكَـمْ نَغْمَـةٍ بَـيْنَ الْحَشَـا رَامَ عَزْفَهَـا ∴ فَظَلَّـتْ كَـوَهْمٍ فِـي الْحَنَيَـاتِ جَـاثِمِ
٢٥- وَتَأْوِيهَـةٍ فِـي اللَّيْـلِ سَـوْدَاءَ مُـرَّةٍ ∴ تُفْـزِعُ فِـي قَلْـبِ الـدُّجَى كُـلَّ نَـائِمِ
٢٦- بَرَأَهَـا كَمَـا تَبَـرَّى مَـا فِيـهِ دَمْعُهَـا ∴ وَسَـارَ كَمَخْبُـولٍ عَلَـى الْأَرْضِ هَـائِمِ
٢٧- هُوَ الصَّبُّ يَـا عَذْرَاءُ شَـابَتْ هُمُومُـهُ ∴ وَلَـمْ يَحْـظَ مِـنْ دُنْيَـاهُ يَوْمًـا بِـرَاحِمِ
٢٨- بَكَيْنَـا، فَـلَا الـدُّنْيَا أَطَلَّـتْ لِـدَمْعِنَا ∴ عَشِـيَّةَ أَسْرَى فِـي الْجُفُـونِ السَّـوَاجِمِ
٢٩- وَنُحْنَـا.. فَمَـا رَقَّـتْ لَنَـا عَـيْنُ كَـائِنٍ ∴ وَلَا أَسِـيَتْ لَنَـا شَـجْوًا قُلُـوبُ الْعَـوَالِمِ
٣٠- كَأَنَّا بِتِلْـكَ الْأَرْضِ أَنْفَـاسُ وَاحَـةٍ ∴ جَفَـا نَبْعَهَـا خَفْـقُ الطُّيُـورِ الْحَـوَائِمِ!

***

أفْكارُ القصِيدةِ:

تقعُ هذه القصيدةُ في ثلاثينَ بيتًا عمُوديًّا، وتشتملُ على ستِّ أفكارٍ، بيانُها الآتي:

البيْتُ الأوَّلُ: مُفْتَتَحُ القصيدةِ، وهوَ بيانٌ عنْ حالِ الشَّاعِرِ.

الأبْياتُ منَ الثَّاني إلى السَّابِعِ: لوْمُ اللائِمينَ.

الأبْياتُ منَ الثَّامِنِ إلى العاشِرِ: نَهْيٌ عن لوْمِ المُعذَّبِ.

الأبْياتُ منَ الحادي عشَرَ إلى الثَّالثَ عشَرَ: صِفاتٌ وشمائلُ منْ عيْنِ عاشِقٍ.

الأبْياتُ منَ الرَّابعَ عشَرَ إلى السَّابِعِ والعِشْرينَ: بعْدَ سعادةِ اللِّقاءِ فراقٌ وشقاءٌ.

الأبْياتُ منَ الثَّامنِ والعِشْرينَ إلى نِهايةِ القصيدةِ: عذابٌ بِلا رحْمةٍ.

***

مدخل:

غالبًا ما يتفوَّقُ شُعُورُ الأديبِ، ويتعمَّقُ حِسُّهُ بالأحْداثِ مِنْ حوْلِهِ، وهُوَ ما يَجْعلُ بَيانَهُ مُتميِّزًا، وحدِيثَهُ مُلْفِتًا للأسْماعِ والقُلُوبِ، فلا يمُرُّ بالشَّيْءِ مُرُورًا عابِرًا، بلْ يَتَفاعَلُ بِكُلِّ عواطِفِهِ وكِيانِهِ، فيَخْرُجُ مِنْهُ المعْنَى المأْلُوفَ في بيانٍ غيْرِ مأْلُوفٍ؛ سواءٌ أدْركَ ذلِكَ في عملِهِ الأدبيِّ، أو لمْ يُدْركْهُ.

وقدْ أبانَ محمودُ حسنُ إسماعيلُ في مطْلَعِ قصِيدتِهِ عنْ هذا الإدْراكِ؛ فأهْدَى قصِيدَتَهُ إلى الَّذِينَ لَا تُشْجِيهِمْ تَأَوُّهَاتُ الْعَاشِقينَ، فَهُمْ لا يتأثَّرُونَ لِتِلْكَ المشاعِرِ العمِيقةِ، وهِيَ لا تتْرُكُ فِيهِمْ هذا الأثرَ النَّفْسِيَّ الدَّفينَ، فتَعامُلُهُم معها يخْتلِفُ باخْتِلافِ درجةِ الشُّعُورِ، وطريقةِ البيانِ، وحالِ الإنْسانِ، وعوامِلِ بِيئتِهِ.

وهذا الشَّاعِرُ وإنْ كانتْ قصِيدتُهُ في الغزلِ؛ إلَّا أنَّها تقْطُرُ حُزنًا، ومشاعِرَ مليئَةً بالألمِ واللَّوْعةِ، فيتكلَّمُ محمودُ حسنُ إسماعيلُ عَن نَّفْسِهِ معَ نَفْسِهِ، قائِلًا:

١- حَزِينٌ؟ أَجَلْ.. وَالْحُزْنُ أَضْحَى مُنَادِمِي ∴ فَدُنْيَايَ دُنْيَا أَدْمُعٍ وَمَآتِمِ[1]

(حَزِينٌ؟)، نطقَ سُؤالُهُ بِحالِهِ دُونَ أداةٍ، والأصْلُ: أأنا حزينٌ؟، **(أَجَلْ)**، وتركَ المُتلقِّيَ يتفكَّرُ أهُوَ السَّائِلُ؟، أمْ للسُّؤالِ قائِلٌ آخرُ؟.

(١) نادمَ: يُنادِمُ مُنادمةً ونِدامًا، ونادمَهُ: جالَسهُ على الشَّرابِ، ورافقهُ. مآتم: المَأتَمُ الجماعة من الناس في حُزْن أَو فرح، وغَلَبَ استعماله في الأحزان والجمع: مَآتِم. لسان العرب، (ندم، أتم).

وقوْلُهُ: **(أَجَلْ)** جوابٌ بالإيجابِ القاطِعِ الجازِمِ، انتقلَ عنهُ بالعطْفِ إلى وصْفِ حالِهِ الأعْلَى، مِنْ حالةِ الحُزْنِ التِي هُو عليْها في السُّؤالِ، فقالَ: **(وَالْحُزْنُ أَضْحَى مُنَادِمِي)** مُفاعَلةٌ ممْزوجةٌ بِمُلازمةٍ لِحالِ النَّفْسِ، ومُداومَةٌ واقْتِرانٌ، ويَسْتفْرِغُ بالعطْفِ باقِي ما في نفسِهِ، فيقُولُ: **(فَدُنْيَايَ دُنْيَا أَدْمُعٍ وَمَآتِمَ)**.

فهذا البيْتُ فقْرةٌ واحِدةٌ يَصِفُ بها الشَّاعِرُ حالَهُ، ويدلُّ المُتلقِّيَ على شُعُورِ قصيدتِهِ ومغْزاها مُوجِزًا، فيُنبِّهُ إلى حالتِهِ لِيلْفِتَ الانتِباهَ إليْهِ، ويبُوحُ بِمكْنُونِ نفسِهِ إلى مُتلقِّيهِ مِنْ خلالِ البيانِ بشِعْرِهِ؛ حيثُ وجدَ فيهِ شجْوًا لِتأوُّهاتِ العاشِقينَ، على عكْسِ ما وجدَ مِنْ بَنِي جِنْسِهِ.

صحيحٌ أنَّ اللَّوْمَ مُؤلِمٌ للْإنسانِ، لكنَّهُ مِرآةٌ تعْكِسُ لهُ حقائقَ، وتكْشِفُ أحْوالًا وأمورًا يغفلُ عنها صاحبُها الغارقُ في شُعورِهِ، سواءٌ كانَ شُعورُهُ حُزنًا وألمًا، أوْ فرحةً وبهجةً، فاللَّومُ داخلهُ نظرةٌ مُجرَّدةٌ عنِ المشاعِرِ فيها بعضُ موازينِ التَّعقُّلِ، لا سيَّما إنْ كانَ منْ صديقٍ مُخلِصٍ، أوْ منْ شخصٍ مُؤتمَنٍ، وقد كانَ الشَّاعرُ غارقًا في حُزْنِهِ لا تخْفَى حالُهُ على أحدٍ؛ فاستَمرَّ توجيهُ اللَّوْمِ إليْهِ في هذه الأبياتِ، بوصفِ هيئتِهِ الَّتي صارتْ ظاهرةَ الأثرِ على سُلُوكِهِ، فيقولُ على لِسانِ لائِميهِ، حيْثُ حديثُ الذينَ لا تُشْجِيهِمْ تأوُّهاتُ العاشِقينَ:

٣- خَيَالُكَ أَضْحَى ظُلْمَةً سَرْمَدِيَّةً ∴ تَرَامَتْ عَلَى لَيْلٍ مِنَ الْبُؤْسِ فَاحِمِ

شبَّهَ شدَّةَ حُزنِ الشَّاعِرِ بالظَّلامِ السَّرْمديِّ الَّذي لا أمَلَ فيهِ للفرْحِ أوِ البِشْرِ أوِ السُّرورِ، وقد بنَى ذلكَ على التَّعْبيرِ بجملةٍ اسميَّةٍ المُسنَدُ إليْهِ فيها مُعرَّفٌ بالإضافةِ إلى ضميرِ المُخاطَبِ، والمُسْنَدُ جملةٌ فِعليَّةٌ ماضٍ فِعلُها، وهو من الأفعالِ الناسخةِ، وخبرُهُ نكرةٌ تعدَّدَ وصْفُها؛ حيثُ وُصِفتْ أوَّلًا بصفةٍ مُفردةٍ، ثمَّ وُصِفتْ بجملةٍ فعليَّةٍ مُضارعٍ فعلُها؛ ليحكِي هيئةَ الموْصوفِ، ويزيدَ في وُضُوحِها، وقدْ تقيَّدَ بهذا الفعلِ قُيودٌ عمِلتْ على ترْبيةِ الفائدةِ.

والتَّعبيرُ بالفعلِ **(أَضْحَى)**؛ للمُقابلةِ بين صيْرُورةِ هذا الفِعْلِ، وبينَ الظُّلْمةِ، فالفعْلُ **(أَضْحَى)** وما يلزمُ معهُ منْ صورةِ الإشراقِ، واقِعٌ في مُقابلةِ الظُّلْمةِ الكائنةِ في خيالِ الشَّاعِرِ؛ علَّهُ ينتبِهُ أوْ يفيقُ.

وقولُهُ: **(تَرَامَتْ عَلَى لَيْلٍ مِنَ الْبُؤْسِ فَاحِمِ)**، وصفٌ آخرُ للظُّلْمةِ المُشبَّهِ بها خيالُ الشَّاعِرِ، وهو تشبيهٌ مُفردٌ بمُركَّبٍ؛ واللَّيلُ هو الزّمنُ، والظُّلْمةُ لونٌ لهُ، وهذا اللَّيْلُ فاحِمُ البُؤْسِ، شديدُ السَّوادِ منْ شدَّةِ الحُزْنِ.

ثمَّ يعطفُ على البيتِ السَّابقِ بيتًا آخرَ داخِلًا معهُ في حديثِ اللائمينَ، ومبْنيًّا على جملةٍ اسميَّةٍ، المُسنَدُ إليْهِ فيها مُتَّحدٌ معَ سابقِهِ في التَّركيبِ والتَّقْييدِ، وخبرُهُ جملةٌ فِعليَّةٌ ماضٍ فِعلُها، ومُتَّصلٌ بضميرٍ يعودُ على المُسْندِ إليهِ، ومعطوفٌ عليهِ جملةٌ فعليَّةٌ أُخرى، ماضٍ فعلُها، ومُتَّحِدٌ مع سابِقِهِ في التَّركيبِ والتَّقْييدِ، بوُقوعِهِ على مفعُولٍ مُقدَّمٍ، ومُتَّصلٍ بسببٍ يعودُ على المُسْندِ إليهِ، ومُتأخِّرٌ فاعلُهُ المُركَّبُ تركيبًا إضافيًّا على خلافِ الأصلِ المعدولِ عنهُ وهو التَّركيبُ النَّعتِيُّ؛ فيقول: **(الموضِعُ الأوَّل[1])**

٤- وَشِعْرُكَ هَدَّتْهُ الْمَآسِي، وَسَوَّدَتْ ∴ أَغَارِيدَهُ فِي الْحُبِّ بِيضُ الْمَعَاصِمِ[2]

أيْ: إنَّ شِعْرَهُ كانَ نِتاجَ الأحْزانِ والشَّدائدِ، وقدْ سيْطرتْ عليْهِ لدرجةِ أنَّهُ شخَّصَ تلكَ المآسِي على سبيلِ الاستعارةِ التَّصْريحيَّةِ التبعيَّةِ، وكذا الأغارِيد الَّتِي هيَ بمعنى أهازِيجِ الطُّيورِ أصْبَحتْ سوْداءَ قاتمةً فاحمةً، وقوْلُهُ: **(بِيضُ الْمَعَاصِمِ)** كنايةٌ عنِ النِّساءِ ذوَاتِ المعاصِمِ البيضَاءِ، والَّتي ألْقتْ بِآثَارِها عليْهِ،

(١) من مواضع العُدُولِ عَنْ صُورةِ النَّعْتِ إلَى صُورةِ الإضافةِ.

(٢) سَرْمَدِيَّةً: السَّرْمَدُ دوامُ الزمانِ من ليلٍ أَو نهارٍ، وليلٌ سرمدٌ: طويل. المعاصِم: المِعْصَمُ مَوْضِعُ السِّوَارِ من اليد، والمِعْصَمُ اليَدُ. اللسان: (سرمد، عصم).

فحوَّلَتْ أغارِيدَهُ سُودًا، وألْقتْ عليْهِ بالظُّلْمةِ والسَّوادِ، بدلًا مِنْ أنْ تُلْقِي عليْهِ بالبياضِ في شِعْرِهِ وأفراحِهِ وأيَّامِهِ.

وتتجلَّى بلاغةُ العُدُولِ عَنْ صُورةِ النَّعْتِ إلَى صُورةِ الإضافةِ في قولِهِ: **(بِيضُ الْمَعَاصِمِ)**؛ للتَّركيزِ على صِفةِ البياضِ في مُقابلةِ السَّوادِ؛ وذلك لبيانِ المُفاجأةِ أو هولِ الصَّدْمةِ الَّتِي أصابتِ الشَّاعرَ.

والمُقابِلةُ بيْنَ المآسِي والأغاريدِ، وبيْنَ السَّوادِ والْبياضِ؛ أكَّدتْ هذهِ الصِّفاتِ، بما لها منْ إبرازِ المعنَى وتوْضِيحِهِ.

وهذِهِ الأبياتُ تحتدُّ في وصْفِهِ، حيثُ صارتِ المآسِي هاديَ شِعرِهِ وقائدَهُ المُطاعَ، كما سوَّدتْ أغاريدَ الحبِّ بيضُ المَعاصِمِ، فيصيحُ فيهِ اللائمونَ:

(المواضِعُ الثَّاني والثَّالثُ والرَّابعُ)

٥- تَضِجُّ عَلَى أُنْثَى تَجَافَتْكَ فِي الْهَوَى ∴ وَتَبْكِي بِدَمْعٍ مِنْ أَسَى الشَّوْقِ عَارِمِ؟
٦- وَتُفْنِي شَبَابًا فِي الْغَرَامِ وَذُلَّهُ ∴ وَشَكْوَاهُ مِنْ سِحْرِ الْعُيُونِ النَّوَائِمِ؟
٧- وَتَصِيحُ فِي الْأَكْوَانِ سُخْرِيَةَ الْوَرَى ∴ هَضِيمَ الْحَوَاشِي مُسْتَخَفَّ الْمَعَالِمِ! (١)

يُلامُ على ما يفعلُهُ مِنْ بُكائِهِ الْعارِمِ مِنْ أَسَى الشَّوْقِ وشِدَّتِهِ، ويُفْنِي أَزْهَى مَرَاحِلِ عُمُرِهِ وأزْهَرَهُ فِي الْغَرامِ وهُو شِدَّةُ الحُبِّ والْعِشْقِ، وما يسْتتْبِعُ ذلكَ مِنْ ذُلٍّ وَهَوَانٍ، ويُفْنِيهِ كذلكَ فِي شكْواهُ الدَّائبَةِ الدَّائِمَةِ مِنَ الْعُيُونِ النَّوَاعِسِ النَّائِمَةِ الَّتِي لَها أَثرُ السِّحْرِ عَلى الإنْسانِ، فَتجْعلُهُ لا يَتمَالَكُ نفسَهُ، ولا يُسَيْطِرُ علَى حَالِهِ.

ويتْبعُ ذلكَ أنَّهُ سوْفَ يَصِيرُ أُضْحُوكَةَ الْخَلْقِ وَهُزْأَتَهُمْ، حتَّى يَسْخرَ منْهُ النَّاسُ، لَيْسَ فِي مَكَانٍ واحِدٍ، وَإِنَّمَا فِي الأماكِنِ جميعِها؛ لِذلِكَ جمعَ كلمةَ الأَكْوانِ، وَيُصبِحُ مُنْكسِرَ الْجوانِبِ، مُسْتَخَفًّا بِهِ لَا يَبِينُ لهُ مَعْلَمٌ، ولا يَظْهرُ لهُ اتِّجَاهٌ.

كُلُّ تِلكَ المَعانِي بَناهَا محمودُ حسنُ إسماعيلُ على التَّعبِيرِ بِجُملةٍ فِعليَّةٍ،

(١) هضيم: الهَضِيم الداخلُ بعضُه في بعض، وقيل: الهَضيمُ الذي يتَهَشَّم تَهَشُّمًا، والهَضِيمُ: اللَّيِّنُ. الحواشي: عيشٌ رقيقُ الحواشي: ناعمٌ في دعة، ورجلٌ رقيق الحواشي: لطيفُ الصحبة. المعالم: مَعْلَمُ الشيءِ: مَظِنَّتُه، وما يُسْتَدَلُّ به. اللسان: (هضم، حوش، علم).

مُضارعٍ فِعْلُها، وداخلٍ في حيِّزِ الاستِفهامِ بالهمزةِ المحذوفةِ، ومبْدُوءٍ بِتاءِ الخِطابِ، ومُقيَّدٍ بجارٍّ ومجرُورٍ موصُوفٍ بجملةٍ فِعليَّةٍ؛ لتوضِيحِهِ، وقدْ عطفَ على هذا الفعلِ الأساسِ في التَّرْكيبِ ثلاثةَ أفعالٍ أُخرَى، مُتَّحِدةٍ معهُ في التَّركِيبِ، وغالِبِ التَّقْييدِ، منْ جارٍ ومجروراتٍ موصوفةٍ، بِصفاتٍ مُضافةٍ إلى موْصُوفِيها على خلافِ الأصلِ؛ لتزْيِيَةِ الفائِدةِ.

باسْتِنكارٍ وتوبيخٍ يتمثَّلانِ في ذمِّ وُقُوعِ هذهِ الأفعالِ منهُ، وكأنَّهُ استِفهامٌ عنِ الدَّاعِي إلى كُلِّ ذلكَ، فالأمرُ لا يسْتَحِقُّ؛ إذِ السَّببُ **(أُنْثَى)**، وقدْ أتَى بها نكِرةً؛ لقصْدِ تهوينِ أمرِها علَى نفْسِ الشَّاعِرِ، وبيانِ وصْفِها **(تَجَافَتْكَ فِي الْهَوَى)**، وما تُوحِي به صيغةُ الفعلِ من المُماطلةِ، والأخذِ والرَّدِّ، والتَّعْذِيبِ له، والتقييدُ بالقيدِ **(فِي الْهَوَى)**؛ لإبرازِ سببِ المُجافاةِ، وكأنَّهُ ليسَ كافيًا، أوْ لا يجدُرُ بمِثْلِهِ أنْ يَضِجَّ هذا الضَّجَّ مِنْ أجْلِ ذلكَ الهَوَى.

وتَتَجلَّى بلاغةُ الطِّبَاقِ بيْنَ **(تَضِجُّ)** بِمعْنَى الإقْبالِ والْحِرْصِ مِنَ الشَّاعِرِ، و**(تَجَافَتْكَ)** بِمعْنَى التَّجَافِي والتَّبَاعُدِ مِنْ هَذهِ الأُنْثَى، وَالَّتِي اخْتَارَ لَهَا هَذَا الْوَصْفَ بِالتَّحْدِيدِ؛ لِيَدُلَّ عَلَى جَلَالِها وجَمَالِها.

وفي وصْلِ الفعلِ **(وَتَبْكِي بِدَمْعٍ مِنْ أَسَى الشَّوْقِ عَارِمِ؟)**، بيانٌ آخرُ عنْ حالِ الشَّاعِرِ، وذِكْرُ القيْدِ **(بِدَمْعٍ)** لإبْرازِ صُورةِ دمعِهِ حاضِرةً ماثِلةً أمامَ القارئِ تمامًا، كما يجرِي الدَّمْعُ ويهطلُ على وجْهِهِ بغزارةٍ.

وفي العدولِ عَنْ صُورةِ النَّعْتِ إلَى صُورةِ الإضافةِ في قولِهِ: **(مِنْ أَسَى الشَّوْقِ)**، والأصلُ فيهِ **(الشَّوقِ الآسي)**؛ تصويرٌ لمدى اللَّوْعةِ الحارقةِ، وإيحاءٌ بقسوةِ الحبِّ وشدَّتِهِ؛ ولذا وصفَ الدَّمعَ بعدَهُ بكونِهِ عارمًا، وقد تطلَّبَ السِّياقُ العُدُولَ عنْ صُورةِ النَّعْتِ إلى صُورةِ الإضافةِ، وتقْديمَ صفةِ **(أَسَى)** على الموْصُوفِ **(الشَّوْقِ)**، والتَّرْكِيزَ عليها، ومَا يستدعِيهِ معناها منَ الشُّعُورِ بالشَّدةِ والصُّعوبةِ.

والْعطْفُ بكلمةِ **(وَذُلِّهُ)** وما تُوحِي بهِ منْ إيلامٍ نفْسِيٍّ وتحريكٍ للمشاعرِ إلَى رفْضِ هذا الشُّعُورِ الَّذِي يأْباهُ كُلُّ حُرٍّ، وكذا عطفُ كلمةِ **(وَشَكْوَاهُ)**،

فأضْحتِ الواوُ ثقيلةً بِما تحملُهُ مِنْ مَعْطُوفاتٍ، وفي هذا العَطْفِ بَيانٌ عنْ أَسْبابِ فَنَاءِ هذا الشَّبابِ الْعَلِيِّ الْقِيمَةِ فِي أَسْبابٍ تأْباها الطِّباعُ السَّلِيمةُ، فهُو يُبِينُ عنْ بَيانِ السببِ، معَ بيانٍ آخرَ هُو اسْتِنْكارُ هذهِ الأسْبابِ أوِ التَّوْبيخُ عليْها.

وتَبرزُ الاسْتعارةُ بقولِهِ: **(مِنْ سِحْرِ الْعُيُونِ النَّوَائِمِ)**، ورغْمَ رِقَّةِ ألفاظِها ومَا تدُلُّ عليهِ من جمالٍ علَى هَوانِها لِأعْيُنِ اللَّائِمينَ في التَّعْبيرِ عنْها بالعُيُونِ النَّوائِمِ، وفِي قُوَّةِ أثرِها علَى الشَّاعِرِ فِي قولِهِ: **(سِحْرِ)**، فَقَدْ أَلْحقتْ بِهِ أذًى كَبِيرًا جَاءَ عنْ طَرِيقِ سَرَابِ الْحُبِّ، فَشبَّهَ الشَّاعرُ الشَّكْوَى مِنْ أَذَى الْحُبِّ وعذابِهِ بِالشَّكْوَى مِنْ أذَى السِّحْرِ ومَا يفْعلُهُ فِي الإنْسانِ منْ أذًى فِي الْعقْلِ والقلْبِ والجَسدِ، كمَا يَفْعلُ أثرُ لِقاءِ عُيُونِ الْمُحِبِّينَ، ومَا يُحْدِثُهُ النَّظرُ فِي الْقلْبِ منْ شُغْلٍ يَصْرِفُ الإنْسانَ إليْهِ صَرْفًا يَغِيبُ بِهِ عنْ دُنْياهُ، كمَا يَغِيبُ الْمسْحورُ بِالسِّحْرِ عنْ دُنْياهُ.

ويَسْتمرُّ المُضارِعُ والْعطْفُ لِلأَفْعَالِ إلَى البيْتِ التَّالِي: فيقُولُ: **(وَتَصِبِحُ فِي الْأَكْوَانِ سُخْرِيَةَ الْوَرَى)**، فَنتيجَةٌ طَبَعِيَّةٌ لِما سبقَ أَنْ يُصْبِحَ سُخْرِيةَ الْوَرَى، بِتَقْدِيمِ ظَرْفِ الْمَكَانِ **(فِي الْأَكْوَانِ)** مَجْرُورًا بـ (فِي الظَّرْفِيَّةِ)، أَضِفْ إلَى ذلكَ جَمْعَ **(الْأَكْوَانِ)**، والتَّعْبِيرَ بِالْمَصْدرِ **(سُخْرِيَةَ)**، وكَأَنَّهُ –أي الشَّاعرُ– صَارَ مَصْدَرَ السُّخْريةِ، وهذا مجازٌ عقْليٌّ، عَلاقَتُهُ المَصْدريَّةُ، على طريقةِ "فَإنَّما هيَ إقبالٌ وإدْبارٌ "[(١)].

فهُوَ يُصْبِحُ مَسْخُورًا مِنْهُ، ولكنَّهُ عبَّرَ بِالمَصْدرِ؛ مُبالَغَةً فِي إبْرازِ هَذهِ الصِّفةِ، وتَنْفِيرًا مِنْهَا، وإضافةُ السُّخْريةِ إلى الوَرَى في قَوْلِه: **(سُخْرِيَةَ الْوَرَى)** كِنايةٌ عَنِ اشْتِهارِهِ بهذِهِ الْهيْئَةِ الْمَذْمُومةِ **(سُخْرِيَةَ)**.

وقولُهُ: **(هَضِيمَ الْحَوَاشِي، مُسْتَخَفَّ الْمَعَالِمِ)** خَبَرانِ مُتعدِّدانِ، ليسَ

(١) يُنظر: دلائل الإعجاز، للإمام عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ– أو ٤٧٤هـ)، تحقيق محمود شاكر، صـ٣٠٠، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط٥، ١٤٢٤هـ– ٢٠٠٤م.

بيْنَهُما تضادٌ، فلمْ يُحْتجْ إلى وصلٍ بينهُما بالواوِ، اتَّحدا في تركِيبِهما، فهما في الأصْلِ نَعْتانِ معْدُولٌ عنْ صُورتِهما الأصْليَّةِ إلى صُورةِ الإضافةِ؛ تركيزًا على تِلكَ الصِّفاتِ في الموصُوفِ، ومُبالغةً فِي كَمالِها فيهِ واشْتِمالِها عليْهِ، فَكأَنَّهُ صارَ مَعْرُوفًا بهذِهِ الصِّفاتِ، وفي ذلكَ مِنَ المُبَالَغةِ اللَّطِيفةِ، والبَلاغَةِ الْعالِيةِ ما لا يَخْفَى، والْأَصْلُ: (حَوَاشِيكَ هَضِيمَةٌ، وَعَوَالِمُكَ مُسْتَخَفَّةٌ)، فانْظُرْ إلَى الْبَيَانَيْنِ؛ لِترَى الْفرْقَ بينَ وَقْعِ النَّعْتِ الْمقْلُوبِ عَلَى النَّفْسِ، والنَّعْتِ علَى الْهَيْئَةِ الْقِيَاسِيَّةِ لَهُ.

وقولُهُ: **(هَضِيمَ الْحَوَاشِي، مُسْتَخَفَّ الْمَعَالِمِ)** بيانٌ لِحالِهِ وهَيْئتِهِ الَّتِي يُرْثَى لَها.

وكَلِماتُ الشَّاعرِ تلكَ تَفِيضُ حُزْنًا وأسًى مِنْ أثرِ هذا اللَّوْمِ علَى نَفْسِهِ، وكيْفَ أنَّ اللَّائِمِينَ لَا يَشْعُرُونَ بِمَا يَشْعُرُ، وَكَأَنَّهُمْ تَجَمَّدتْ مَشَاعِرُهُمْ، فَاسْتَهَانُوا بِشُعُورِهِ، فَقالَ لَهُمْ: **(الموضِعُ الخامس)**

٨- **فَقُلْتُ لَهُمْ: لَا تُكْثِرُوا اللَّوْمَ؛ إنَّنِي ∴ تَحَيَّرْتُ فِي كَوْنٍ عَجِيبِ الْمَظَالِمِ**

وهُنا يَطْلُبُ الشاعرُ منَ الْعَواذِلِ واللَّائِمِينَ عدمَ الرُّجُوعَ عليْهِ باللَّوْمِ والتَّأْنِيبِ، حيثُ قدِ اشْتدَّتْ حيْرتُهُ مِنْ عَالَمِ الحُبِّ وَكَوْنِ الْغَرامِ؛ لأنَّهُ يَشْملُ ويَضُمُّ مَجمُوعةً منَ المَظالِمِ والْمآسِي الَّتِي يَدْهَشُ لها الإنْسانُ ويطربُ ويعجبُ.

وقدْ بَنَى هذا المَعنَى علَى التَّعْبِيرِ بجُملةٍ فِعليَّةٍ، ماضٍ فِعْلُها، ومسْبُوقٍ بِفاءِ التَّفريعِ على ما سبقَ، ومُتَّصلٍ بتاءِ المُتكلِّمِ، وهُو فِعْلُ القوْلِ، ومُقيَّدٍ بجارٍّ ومجرورٍ؛ لإفادةِ التَّخْصيصِ، ومقُولُهُ جُملةٌ فعليَّةٌ، مضارعٌ فعلُها، ومسبوقٌ بـ (لا النَّاهِيَةِ)، ومُتعلِّقٌ بمفعولٍ، ثُمَّ اسْتأْنَفَ الشاعرُ جُملةً أُخرى اسميَّةً مؤكَّدةً بـ (إنَّ) الَّتي تُفيدُ حتميَّةَ ثُبُوتِ الخبرِ للمُبتدأِ، واسْمُها ضميرُ المُتكلِّمِ الياءِ، وخبرُها جُمْلةٌ فعليَّةٌ ماضٍ فعلُها، ومُسندٌ إلى تاءِ المُتكلِّمِ، ومُقيَّدٌ بجارٍّ ومَجرُورٍ موصوفٍ بصفةٍ مُضافةٍ إلى موصُوفِها على خلافِ الأصْلِ، وما إطالةُ الجُملةِ بهذِهِ القُيودِ؛ إلَّا لِترْبيةِ الفائِدةِ، وتوضِيحِ المَعنَى.

وقوْلُهُ: **(فَقُلْتُ لَهُمْ: لَا تُكْثِرُوا اللَّوْمَ)** فِيهِ الْتِماسٌ بالكَفِّ عَنْ إيلَامِهِ وذمِّهِ

فِيما لا حِيلةَ لهُ فيهِ، وفَصْلُ جُملةِ **(إِنَّنِي تَحَيَّرْتُ)** عنِ الجُملةِ السَّابقةِ عليها؛ لاختِلافِهما خبرًا وإنشاءً، وجُملة **(إِنَّنِي تَحَيَّرْتُ)** تَسَلْسُلٌ مَنْطِقِيٌّ لِحَالِهِ، فقوله: **(تَحَيَّرْتُ)** انْفِتاحُ التَّاءِ فِي أَوَّلِ الكلِمةِ يُوحِي بِغِيابِ معالِمِ حُدُودِ الْعقْلِ وضَوَابِطِ الأُمُورِ.

وقُولُهُ: **(فِي كَوْنٍ عَجِيبِ الْمَظَالِمِ)** تَفْعلُ (فِي الظَّرْفِيَّةُ) بالمكانِ معْنَى الاشْتِمالِ والاحْتِواءِ الْكَامِلِ، ويَأْتِي النَّعْتُ المَعْدُولُ عنْهُ إلى الإضافةِ أيْضًا **(عَجِيبِ الْمَظَالِمِ)**؛ لِتَسْبِقَ صِفتُهُ بالْعجَبِ إلَى الْقَارِئِ بِمَا تَحْمِلُهُ نَفْسُ الشَّاعِرِ مِنْ هذا الشُّعُورِ الَّذِي امْتلأتْ بِهِ نَفْسُهُ، فصارَ مَمْدُودًا، وناسَبَهُ النُّطْقُ بِالمَدِّ **(عَجِيبِ الْمَظَالِمِ)**، وفي إضافةِ الصِّفةِ إلى الموْصُوفِ قُوَّةُ مُلَابَسَةٍ بينَ الْمُضَافِ والْمُضَافِ إلَيْهِ، وفيه كذلك تناسبٌ بيْنَ الحيْرةِ والعَجَبِ، ففي العُدُولِ عنِ النَّمطِ وتقْدِيمِ الصِّفةِ قُوَّةٌ فِي الرَّدِّ مِنَ الشَّاعِرِ تُحرِّكُ مُخاطَبِيهِ اللَّائِمِينَ علَى ما لامُوهُ بِهِ.

وشاهِدٌ آخرُ على العُدُولِ عَنْ صُورةِ النَّعْتِ إلَى صُورةِ الإضافةِ ، يقُولُ مُتحدِّثًا عنِ المحبوبةِ:

(الموضِعُ السادسُ)

١٠- تَعَلَّقْتُهَا عَذْرَاءَ يَنْدَى حَدِيثُهَا ∴ صَفَاءً تَجَلَّى مِنْ عَفِيفِ الْمَبَاسِمِ[(١)]

أيْ إنَّهُ قَدْ زَادَ تَعَلُّقُه بِها زِيادةً كَبِيرةً، عبَّرَ عَنْهُ بِصيغةِ التَّفَعُّلِ الَّتِي تُفِيدُ ما لَاقاهُ مِنْ جَهْدٍ وعَنَتٍ ومَشَقَّةٍ فِي سبِيلِ ذلكِ، وهِي عذْراءُ، نديٌّ حديثُها، ويُظْهِرُ صفاءً يَتجَلَّى مِنْ فَمِها الْبَسَّامِ الْعَفِيفِ.

وقدْ بنَى هذا المعنَى علَى التَّعبِيرِ بِجُملةٍ فِعليَّةٍ، ماضٍ فِعلُها، ومُسندٌ إلى تاءِ المُتكلِّمِ، ومُتعدٍّ إلى ضميرِ المفعُولِ العائِدِ إلى المُتحدَّثِ عنْها، ثُمَّ تقيَّدَ الفاعلُ بحالٍ؛ لِبيَانِ هيئةِ المفعُولِ بِهِ، ولتوضِيحِهِ، والحالُ هُنا مُفردٌ، وقدْ

(١) المباسم: جمعُ مَبْسَمٍ، وهو اسْمُ مكانٍ من بسَمَ: ثغر، مكانُ البسمةِ منَ الوجْهِ، ويقالُ: هو حلو المَبْسم رقيق الكلام. اللسان: (بسم).

وُصِفَ بجُملةٍ فِعليَّةٍ تزيدُ في توْضِيحِهِ، وجُمْلةُ الصِّفةِ هذِهِ تقيَّدتْ بقيُودٍ، عملتْ على تربِيةِ الفائِدةِ، وزادتْ في بيانِ الموصُوفِ وتوضِيحِهِ.

وفِي العُدُولِ عَنْ صُورةِ النَّعْتِ إلَى صُورةِ الإضافةِ، وتقْدِيمِ الصِّفةِ في قَوْلِه: **(عَفِيفِ الْمَبَاسِمِ)**، والأصلُ فيهِ **(المباسمِ العفيفةِ)**؛ إبْرازٌ لِتِلْكَ الصِّفةِ الَّتِي تتلاءَمُ وتتناسبُ معَ سِياقِ الصِّفَتَيْنِ المُتقدِّمتَيْنِ **(عَذْرَاءَ، صَفَاءً)**، واللَّتانِ تآزرتَا معَ ثالِثتِهِما**(عَفِيفِ)** في إبْرازِ المعنَى وتوْضِيحِهِ.

ويتجلَّى سِرٌّ آخرُ كامنٌ في التَّعْبيرِ بـ**(عَجِيبِ الْمَظَالِمِ)**، و**(عَفِيفِ الْمَبَاسِمِ)**، أنَّهُ لوْ جاءَ على الوَصْفِ، لقالَ: (المظالم العجيبة، والمباسم العفيفة)، ولو قالَ كذلكَ لكانَ في هذا السِّياقِ كلامًا ركيكًا، وخلْفًا من القوْلِ كما عَبَّرَ الإمامُ عبدُ القاهِرِ، وأيضًا سَيُحْدِثُ خلَلًا في قافِيةِ القصيدةِ، وهو أمرٌ مُهِمٌّ جدًّا للمُحافظةِ على الإيقاعِ النَّظْميِّ المُتحدِّرِ مِنْ أعْطافِ القصيدةِ المبنيَّةِ على قافِيةِ المِيمِ المكْسُورةِ.

وفِي البيتِ الثَّالِثَ عشَرَ، يستخْدِمُ كذلكَ العدُولَ عَنْ صُورةِ النَّعْتِ إلَى صُورةِ الإضافةِ الإضافيِّ؛ قائِلًا:

(الموضِعُ السابعُ)

١٣- تَلَقَّيْتُ مِنْهَا وَحْيَ شِعْرِي سَامِيًا ∴ وَأُلْهِمْتُ مِنْهَا خَالِدَاتِ الْمَلَاحِمِ

أيْ إنَّ المحبُوبةَ كَانتْ سببًا فِي اسْتِمْدادِهِ بِمَلَكتِهِ الشِّعْريَّةِ، وبِأَشْعارِهِ الَّتِي ارْتَقَى بِها إلَى درجةٍ جَعلتْهُ يُشبِّهُ تِلْكَ الْأَشْعارِ بِأنَّها وَحْيٍ؛ كمَا كتبَ المَلاحِمَ، والْمَلْحمةُ قَصَائِدُ تَشْتمِلُ علَى مِئاتِ الْأَبْياتِ، فقدْ زَوَّدتْهُ تِلكَ المحبُوبةُ بِطُولِ النَّفَسِ فِي كِتابَةِ الْأَشْعارِ، وهذهِ الْملاحِمُ ستظلُّ بَاقِياتٍ علَى مَدى كَرِّ الْعُصُورِ ومَرِّ الدُّهُورِ.

وقدْ عَرَضَ هذا المعْنَى فِي هيئةِ الفعلِ الماضِي، المُسْنَدِ إلى تاءِ المُتكلِّمِ، والمُقيَّدِ بِقُيودٍ تفاوتتْ في ترتِيبِها؛ حيثُ تقدَّمَ الجارُّ والمجْرُورُ على المفعُولِ؛ لِتخْصِيصِ المُشارِ إليْهِ، وأُضيفَ المفعُولُ إلى ما يُحدِّدُهُ، وتقيَّدَ المُضافُ إليهِ بحالٍ تَكْشِفُهُ، ثمَّ عُطِفَ على الفِعلِ المبنيِّ عليْهِ المَعنَى آخرُ

مِثْلُهُ مبنيٌّ لِما لمْ يُسمَّ فاعلُهُ، ومُقيَّدٌ بجارٍّ ومجْرُورٍ مُقدَّمٍ على نائبِ فاعِلِهِ الَّذي أتَـى مُضـافًا، ومعْـدولًا عـنْ نعتِـهِ إلـى إضـافتِهِ؛ لتربيـةِ الفائِـدةِ، ولزيـادةِ البيـانِ والوضوحِ.

واسْتعْملَ صِيغَة المَاضِي فِي قَوْلِهِ: (**تَلَقَّيْتُ**)، وقَوْلِهِ: (**أُلْهِمْتُ**)؛ للدَّلالَةِ عَلَى تحقُّقِ الوُقُوعِ، وتأكيدِ المعنَى، وتمكُّنِ هذهِ الأفعالِ مِنْهُ.

فلمَّا تلقَّى مِنها وحْيَ شِعْرِهِ، خرجتْ مِنْهُ ملاحِمُ خالِدةٌ، وهذا تأكِيدٌ على قُوَّةِ هذا الوحْيِ، وأثرِهِ فِيهِ؛ وذلكَ مِنْ خِلالِ تقْديمِ الصِّفةِ علَى الموْصُوفِ، بِواسِطةِ العُدُولِ عنْ صُورةِ النَّعْتِ(**الملاحِمِ الخالِدةِ**) إلى صُورةِ الإضافةِ (**خَالِدَاتِ الْمَلَاحِمِ**)، مع قوَّةِ المُلابسةِ بينَ الصِّفةِ والموْصُوفِ.

***

وَالأبْيَاتُ التَّاليةُ منَ البيْتِ الرَّابعَ عشَرَ إلى البيْتِ السَّابِعِ والعِشْرينَ، ضمَّتْها فِكرةٌ عنْونْتُها بِـ (بعْدَ سعادةِ اللِّقاءِ فراقٌ وشقاءٌ)، كُلُّها مُرتبطٌ بِبعْضِهِ، وإن لَّمْ يُكُنْ في مُعظَمِها عُدُولٌ عنْ صُورةِ النَّعْتِ إلى صُورةِ الإضافةِ، ولكنْ ينبغِي ذِكْرُها؛ حيثُ يستخْدِمُ فيها محمودُ حسنُ إسماعيلُ العُدُولَ إلى التَّرْكيبِ الإضافِيِّ كنوْعٍ مِنْ ربْطِ الأفْكارِ عنْ طريقِ ذِكرِ المُعادِلِ، إذْ إنَّ هذه الأبياتِ حِكايةُ حَالٍ، ووصْفُ لِقاءٍ في جنَّةِ الهوَى، لكنَّهُ كانَ لِقاءً قصيرًا لمْ يلْبثْ أنْ أعْقبَهُ فِراقٌ، فتبدَّدتْ فرْحةُ الشَّاعرِ، وغشِيَهُ إحْساسٌ ثَقِيلٌ بالهمِّ والأسَى، يرمُزُ إلَى هذا الموْقِفِ بحديقةٍ كانتْ غنَّاءَ، ثُمَّ صوّحتْ عيدانُها، وهجرَ أليفُها منَ الحمامِ الصَّادِحِ فيهَا عُشَّهُ، وبدلًا مِنَ الأنْسامِ الرَّقيقةِ الَّتي كانتْ تُنْعِشُ النَّفْسَ، وتبعثُ الأملَ، وتُوقِظُ الحُبَّ؛ هبَّتْ رِياحٌ سمومٌ تقتلِعُ الأخْضرَ واليابِسَ، وتملأُ الجوَّ بِأصْواتٍ مُنكرَةٍ مُخِيفةٍ(١).

(١) يُنظر: شاعريَّة محمود حسن إسماعيل، شفيع السيّد، صـ١٤٦، بتصرُّفٍ، مجلة علامات في النقد، ج٧، م٢، شوّال ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م، النّادي الأدبي الثّقافي بجدّة.

وفِي ذلكَ يقُولُ محمودُ حسنُ إسماعيلُ:

١٤- وَلَمَّـــا تَلَاقَيْنَـــا وَكَـــادَ صَـــفَاؤُنَا ∴ يُرَفِّـهُ مِـنْ وَجْـدِ الْقُلُـوبِ الْهَـوَائِمِ

١٥- تَصَاوَحَتِ الْعِيدَانُ فِي جَنَّةِ الْهَوَى ∴ وَجَافَى رَفِيقُ اللَّحْنِ عُشَّ الْحَمَائِمِ

١٦- وَبَـــدَّلَتِ الْأَنْسَـــامُ بَـــيْنَ أَرَاكِهَـــا ∴ فَحِـيحَ أَعَاصِـيرٍ، وَلَفْـحَ سَـمَائِمِ

١٧- كَـأَنَّ اخْـتِلَاجَ النُّـورِ فَـوْقَ حُطَامِهَـا ∴ مِنَ الْأَلَقِ الْخَـابِي تَهَاوِيلُ وَاهِمِ[١]

إذْ قدَّمَ صورةَ حديقةٍ فيْحاءَ زكيَّةِ الرَّائِحةِ، ريَّانةِ النَّسِيمِ، هجرَها بُلْبُلُها الَّذِي طالما شدا بِأَلْحانِهِ فوقَ مُرُوجِها الخضْراءِ، وحِينذاكَ توجَّهَ الشَّاعِرُ إلى رُبَاهَا، سائِلًا عنْ ذلكَ البُلْبُلِ الطَّرُوبِ، فوَجَمتِ الرَّوابِي أوَّلَ الأمْرِ، ثُمَّ ما لَبِثتْ أنْ أشارتْ إلَى مَكانٍ بعيدٍ فوقَ صُخُورٍ صمَّاءَ، حيثُ قبعَ البُلْبُلُ هُنالِكَ في انْكِسارٍ وصمتٍ حزينٍ يصْطلِي بِهجيرِ الصَّحْراءِ[٢]، ثُمَّ يقُولُ:

(الموضِعان الثَّامنُ والتَّاسعُ)

١٨- وَغَيْسَـانَةِ الْأَفْيَـاءِ، وَهْنَانَـةِ الصِّبَا ∴ مُشَـرَّدَةِ الْأَطْيَـابِ، رَيَّـا النَّسَـائِمِ[٣]

١٩- سَـأَلْتُ رُبَاهَـا: أَيْـنَ بُلْبُلُـكِ الَّـذِي ∴ تَغَنَّى طَوِيلًا فِـي الْمُرُوجِ الْقَوَاسِمِ؟

---

(١) تصاوحت: تَصَوَّحَ البَقْلُ وصَوَّحَ: تَمّ يُبْسُه. الأنسام: والنَّسَمُ والنسيمُ: نفَس الرِّيح إذا كان ضعيفًا، والجمع منها أَنسامٌ، والنَّسِيمُ: الريح الطيبة. لَفْحُ النار: حَرُّها ووَهَجُها. سمائم: والسَّمُومُ :الريحُ الحارَّة، تؤنث، وقيل: هي الباردة ليلًا كان أَو نهارًا، تكون اسمًا وصفة، والجمع سَمائم. اخْتَلَجَ الشَّيءُ: اخْتِلاجًا إذا اضطرب وتحرَّك. اللسان: (صوح، نسم، لفح، سمم، خلج).

حُطامها: الحُطامُ ما تَكَسّرَ من اليَبيس. الأَلق: أَلَقَ البرقُ يأْلِقُ أَلقًا وتأَلَّقَ لمع وأَضاء، الخابي: خَبَأَ الشيءَ يَخْبَؤُه خَبْئًا: سَتَرَه. التَّهْويلُ: واحِدُةُ التَّهاويلُ، ما هُوِّل به، وتَشْنِيعُ الأَمْرِ. اللسان: (حطم، ألق، خبا، هول).

(٢) يُنظر: شاعريَّة محمود حسن إسماعيل، شفيع السيّد، صـ١٤٧.

(٣) غيسَانة: الغَيْساء من النِّساء: النَاعِمَة، الغَيْسانيُّ: الجَميلُ كأنه غُصْنٌ في حُسْنِ قامَتِهِ. الأفياء: الفَيْء: ما كان شمسًا فَنَسَخَه الظِّلُّ، والجمع: أَفْياءٌ وفُيُوءٌ، والفَيْءُ ما بعد الزَّوالِ مِن =الظلِّ. وهنانة الصبا: امرأَة وهْنانةٌ فيها فُتُورٌ عند القيام وأَناةٌ، والوَهْنانة من النساء الكَسْلى عن العمل تَنَعُّمًا. الصِّبَا: الصَّغَر والحداثة ، والصِّبَا الشَّوْقُ. اللسان: (غيس، فيء، وهن، صبا). مشردة الأطياب: وشَرَدَ الرجلُ شُرودًا: ذهب مَطْرُودًا. وأَشْرَدَه وشَرَّدَه: طَرَدَه. وقوله –عز وجل–: ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ ﴾ [الأنفال: ٥٧]، أي فَرِّق وبَدِّدْ جمعهم. ريا النسائم: الرَّيَّا: الرِّيحُ الطيبة. اللسان: (شرد، ريا).

يَتحدَّثُ فِي هذيْنِ البيْتَيْنِ عنْ جنَّةِ الهوَى، وما فِيها مِنْ مظاهِرِ السَّعادةِ، ودَلالاتِ السُّرُورِ، حيثُ الحديقةُ الغنَّاءُ، وطِيبُ النَّسيمِ، وتنعُّمُ الصِّبا، وتنوُّعُ الأطْيابِ، وتفرُّقُها، والتَّغنِّي بأعْذبِ الألْحانِ، ثُمَّ يَلْفِتُ الشَّاعِرُ السَّامِعَ إلى العَلاقةِ بينهُ لمَّا تحدَّثَ عن نَّفسِهِ، وبينَ المُعادلِ الموْضُوعيِّ الَّذي وضعهُ رمْزًا لِمأساتِهِ، وهُو البُلبُلُ؛ سائِلًا تِلكَ الرُّبَى عنْ ذلِكَ البُلبلِ، الَّذي كانَ يَتغنَّى فِي تِلكَ الحديقةِ الفَيْحاءِ.

والواوُ في قولِهِ: **(وَغَيْسَانَةِ الْأَفْيَاءِ)** عاطفةٌ علَى قولِهِ: **(فِي جَنَّةِ الْهَوَى)** في البيْتِ الخامسَ عشرَ، فعطفَ المُفْردةَ (غَيْسانَةِ) على المُفردةِ (جنَّةِ)، وفِي هذا العطفِ على السَّابِقِ تضْمينٌ عروضيٌّ[(١)]، ووظِيفتُهُ الترابُطُ بينَ الأبياتِ، والتَّعالُقُ فيما بينَها، وقدْ وقعَ كذلكَ في البيتِ التَّالي لهذا البيْتِ.

وكُلٌّ مِنْ **(وَهْنَانَةِ الصِّبَا، مُشَرَّدَةِ الْأَطْيَابِ، رَيَّا النَّسَائِمِ)** صِفاتٌ مُتعدِّدةٌ، تابعةٌ لِجنَّةِ الهَوى، مِنْ غيرِ عطفٍ بالواوِ؛ مُفرداتٌ مُتناسبةٌ، تمْتازُ بِحُسنِ التَّقْسيمِ الَّذي يُضْفي على البيْتِ موسيقى داخليَّةً تجْذِبُ المُتلقِّيَ وتُشوِّقُهُ، وتُمتِّعُهُ بالتَّطْريبِ والتَّغنِّي.

وفي البيتِ التَّالي – التَّاسعَ عشرَ – سلَّطَ الضَّوءَ على تِلكَ الجنَّةِ غيْسانةِ الأفْياءِ، وتحدَّثَ عنْها، بجملةٍ استِئْنافيَّةٍ **(سَأَلْتُ رُبَاهَا)**، ماضٍ فِعلُها، ومُسندٍ

(١) التضمين: "أن يكون الفصلُ الأول مفتقرًا إلى الفصلِ الثاني، والبيتُ الأوَّلُ مُحتاجًا إلى الأخير"، ومن العلماءِ مَنْ عابَهُ، ومنهم مَّنِ استحْسنَهُ، ويُنظرُ في تفصيلِ هذه المسألة:
كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، تحقيق: على محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، صـ ٣٦، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م. والمثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير٦٣٧هـ، ٣٢٤/٢، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.
معجم مصطلحات النقد العربي القديم، د/ أحمد مطلوب، ١٦٤، مكتبة لبنان ناشرون، ط١، ٢٠٠١م.
ويُنظر: دلالات التراكيب وعلاقتها بوجوه تحسين الكلام في ديوان ابن عبد ربه الأندلسي (ت ٣٢٨هـ)، للباحثة/ وديدة عبد الظاهر السيد الشناوي، صـ٣١، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الأزهر – القاهرة، ٢٠١٢م.

إلى تاءِ المُتكلِّمِ، ومُتعدٍّ إلى مفعُولٍ مُضافٍ إلى ضميرِ الغيبةِ العائِدِ على تِلكَ الجنَّةِ المُتحدَّثِ عنها سابِقًا؛ حتَّى يربِطَ الشَّاعِرُ بينَهُ وبيْنَ مُعادِلِهِ الَّذي وضعهُ موضوعًا ورمزًا لمأْساتِهِ، فالرَّبْطُ بالضَّميرِ يُرتِّبُ جُملًا وأحداثًا بعضَها على بعضٍ، ويجْعلُ منَ الأبياتِ لُحمةً مُتَّصِلةً.

ثُمَّ استأنفَ جملةً استِفهاميَّةً مُصَدَّرةً بـ(أيْنَ)، داخلةً في حيِّزِ الفعلِ (سألْتُ)، وهي جملةٌ اسميَّةٌ، المُسنَدُ إليهِ فيها كلمةُ الاستفهامِ، ومُسندُهُ مُفردٌ مُضافٌ إلى ضميرِ الخِطابِ العائِدِ إلى جنَّةِ الهوَى، وقدِ اجْتُلِبَ لهُ اسمُ الموصُولِ (الَّذي)؛ لِيُتوصَّلَ بهِ إلى وصْفهِ بجُملةٍ، عملتْ على توضيحِ المعنى، وزيادةٍ في الإبانةِ عنهُ.

وفِي العُدُولِ عنِ صُورةِ النَّعْتِ، وتقْدِيمِ الصِّفةِ في قَوْلِه: **(مُشَرَّدَةِ الْأَطْيَابِ)**، وقَوْلِه: **(رَيَّا النَّسَائِمِ)**، والأصلُ فيهِما **(الأطيابِ المُشرَّدةِ)**، و**(النَّسَائِمِ الرَيَّا)**؛ تصديرٌ لهاتَيْنِ الصِّفتَيْنِ، أيْ جعلهُما في موضِعِ الصَّدارةِ أمامَ المُتلقِّي، باعتِبارِ سياقِهِما فِي ذلكَ الموقفِ الشُّعُوريِّ، وهُو الحديثُ عنْ نعيمِ تِلكَ الجنَّةِ في مُقابلِها (صُمّ الصُّخُورِ)، وهو ما يأتِي بعدَ هذا البيتِ.

يقولُ محمودُ حسنُ إسماعيلُ، مُكْمِلًا الحِوارَ الذي عقَدهُ بالسُّؤالِ بينَهُ وبيْنَ رُبَى جنَّةِ الهوَى عنْ بُلبُلِها الَّذي تغنَّى طويلًا فيها:

(المواضِعُ العاشرُ والحادي عشرَ والثَّاني عشرَ)

٢٠- فَأَطْرَقَتِ الْأَغْصَانُ حُزْنًا، وَأَصْبَحَتْ ∴ كَمُرْتَبِكٍ مِنْ حَيْرَةِ الْفِكْرِ وَاجِمِ

٢١- وَقَالَتْ: بَعِيدٌ عَنْ ظِلَالِي مَكَانُهُ ∴ هُنَاكَ عَلَى صُمِّ الصُّخُورِ الصَّلَادِمِ

٢٢- بِفَيْفَاءَ مَلَّ الصَّمْتُ فِيهَا مُقَامَهُ ∴ نَسِيلَ الْخَوَافِي، مُسْتَهَاضَ الْقَوَادِمِ

٢٣- تُمَـــزِّقُ أَرْوَاحُ الْهَجِيـــرِ شِـــغَافَهُ ∴ وَتُصْلِيهِ مِنْ لَفْحِ السَّوَافِي بِجَاحِمِ[١]

عَلَى سَبيلِ التَّشْخِيصِ لِلأَغْصانِ الَّتِي الْتزمتِ السُّكُوتَ والصَّمْتَ مِنْ شِدَّةِ الحُزْنِ، وصَارتْ كإنسانٍ وقَعَ فِي ارْتِباكٍ شديدٍ وحيْرَةٍ مِنْ أمرِهِ؛ أدَّى بِهِ ذلكَ إلَى حالةٍ مِنَ الوُجُومِ أي السُّكُوتِ التَّامِّ والصَّمْتِ الْكَامِلِ.

وقدْ أجابتْهُ الأغصانُ بأنَّ البُلبُلَ أصبَحَ مُبْعدًا عنْ نعيمِ تلْكَ الجنَّةِ، وصارَ مَكانُهُ عَلى الصُّخُورِ الصّلْبةِ الصّلْدةِ، يَهِيمُ عَلَى وَجْهِهِ بِفَيْفاءَ أيْ صَحْراءَ جَرْداءَ لا زَرْع فِيها ولا مَاء، صَامِتًا ساكِتًا ساكِنًا، يُعانِي آلامَ الهجْرِ والفِراقِ، ومِنْ طُولِ صَمْتِهِ لمْ يَمَلَّ هُوَ مِنَ الصَّمْتِ، وَإنَّما مَلَّ مِنْهُ الصَّمْتُ علَى سبِيلِ التَّشْخِيصِ بِالاسْتِعارةِ الْمَكْنِيَّةِ؛ مِنْ طُولِ مُكْثِهِ وَلُبْثِهِ فِي هَذا الْمكانِ المُقْفِرِ، وصارَ منْسُولَ الخَوافِي والقوادِمِ، وذلكَ كِنايةً عنْ عَجْزِهِ التَّامِّ، وتبدُّلِ حالِهِ؛ فالطَّائِرُ يَظَلُّ لَائِطًا بِالْأَرْضِ والسّفْلِ إذَا نُزِعَتْ رِيشُ أَجْنِحَتِهِ.

ويُلْحظُ أنَّ محمودَ حسنَ إسماعيلَ كثيرًا مَّا يلْجأُ إلَى التَّشْخِيصِ في إبْرازِ المَعْنَى وتوْضِيحِهِ، "وهو يستخدمُ تلكَ الوسائلَ من تجسيدِ المعْنويَّاتِ، وتجريدِ المادِّيَّاتِ، والمزجِ المُباشِرِ بينَ المادِّيِّ والمُجرَّدِ، وتبادُلِ النُّعُوتِ الحسِّيَّةِ؛ فتبدُو على شعرِهِ غلالة ظليلة من الإبهامِ، ترجعُ في الغالبِ إلى التَّركيبِ اللَّفظِيِّ والصُّورةِ، أكثرَ ما ترجعُ إلى جوهرِ التَّجْربةِ الشِّعريَّةِ"[٢].

---

(١) الواجمُ: الذي اشتدَّ حُزْنه حتى أَمْسَك عن الكلام. الصلادم: الصَّلْدم: الصُّلْبّ الشديد.
نسيل: أَنسَل ريشُ الطائر إذا سقط، واسمُ ما سقَط منه النَّسِيل.
الخوافي: رِيشَات إذا ضَمَّ الطائرُ جَناحَيْه خَفِيت؛ وقيل: هي الريش الصغار التي في جَناحِ الطائر ضِدُّ القَوادِم، واحدَتُها خافية. مستهاض: المُسْتَهاضُ الكَسِيرُ يَبْرَأُ فيُعْجَلُ بالحَمْلِ عليه والسَّوْق له، فينكسر عظمه ثانية بعد جَبْر وتَمائُل. القوادم: قوادِمُ ريشِ الطائرِ ضدُّ خوافيها، الواحدةُ قادمةٌ وخافيةٌ، والقوادمُ أربعُ ريشاتٍ في مُقدَّمِ الجناحِ.
شغاف: الشَّغاف غِلاف القلب، وقيل: هو حَبّة القلب وهو سُوَيْداء القلب.
السوافي: من الرِّياحِ: اللَّواتي يَسْفِين الترابَ، وفِعْلُ الريح السَّفْيُ. بجاحم: الجاحِمُ المكان الشديد الحرّ، ويقال للنار جاحِمٌ أَي توقُّد والتهابٌ. اللسان: (وجم، صلدم، نسل، خفي، هيَض، قدم، شغف، سفي، جحم).

(٢) الرَّمز والرَّمزيَّة في الشعر المعاصر، د/ محمد فتوح أحمد، صـ١٩٨، ط٣، دار المعارف- القاهرة، ١٩٨٤م.

والبيْتانِ الحادِي والعِشْرُونَ، والثَّانِي والعِشْرُونَ فيهِما عُدُولٌ عنِ الأصْلِ، وإضافةُ الصِّفةِ إلى الموصُوفِ، وقدْ بنى محمودُ حسنُ إسْماعيلُ معناهُما عَلَى التَّعْبِيرِ بجُملةٍ فِعليَّةٍ، ماضٍ فِعْلُها، ومسْبُوقٍ بِواوِ العَطْفِ على ما سبقَ، وهُو فِعْلُ القوْلِ، وفاعِلُهُ مُضْمرٌ عائدٌ علَى الأغْصانِ في البيْتِ قبلَهُ، ومقُولُهُ جُملةٌ اسميَّةٌ، المُسندُ إليهِ فيهَا صِفةٌ مُشبَّهةٌ، مفصُولٌ بيْنها وبيْنَ فاعِلِها بقيْدٍ هوَ الجارُّ والمجْرُورُ؛ لِيزِيدَ في وصْفِ البُلْبُلِ، وقدْ تقيَّدَ هذا المُسْندُ إليْهِ بقُيُودٍ عَمِلتْ على تربيَةِ الفائِدةِ، وزيادةِ الإبانةِ، والتَّوْضِيحِ، كالتَّقْيِيدِ بظرْفِ المكانِ، والجارِّ والمجْرُورِ، والنَّعْتِ المَعْدُولِ عنهُ إلى الإضافةِ، والحالِ، وكُلُّ ذلكَ لاعْتِباراتٍ سياقيَّةٍ، كما سيتَّضِحُ منَ التَّحْليلِ.

وبالتَّأمُّلِ في قولِهِ: **(بَعِيدٌ عَنْ ظِلَالِي مَكَانُهُ)**؛ نجدُ أنَّ فِيهِ عُدولًا عن التَّركِيبِ الإسْناديِّ بينَ المُسْندِ إليْهِ والإخْبارِ عنهُ بالصِّفةِ المُشبَّهةِ، فأصلُ التَّرْكِيبِ: (مكانُهُ بعيدٌ)؛ وذلكَ للمُبالغةِ في وصْفِ البُلبُلِ بكونِهِ مُبْعدًا عن نَّعيمِ تِلكَ الجنَّةِ الموْصُوفةِ بالصِّفاتِ الأولَى السَّابِقةِ، في مُقابِلِها بقولِهِ: **(صُمِّ الصُّخُورِ الصَّلَادِمِ)**، والأصْلُ في هذا التَّرْكيبِ **(الصُّخورِ الصُّمِّ)**، لكنَّهُ عدلَ عنِ النَّعْتِ إلى الإضافةِ؛ امتِدادًا لأثرِ الصِّفةِ في مُقابلةِ وصفِ جنَّةِ الهوَى بكونِها **(غَيْسَانَةِ الْأَفْيَاءِ، وَهْنَانَةِ الصِّبَا، مُشَرَّدَةِ الْأَطْيَابِ، رَيَّا النَّسَائِمِ)**، وهذا نوعٌ مِنْ ربطِ أفكارِ القصيدةِ، وجعلِها مُتشابِكةً.

والوصْفُ بالحالِ في قوْلِهِ: **(نَسِيلَ الْخَوَافِي، مُسْتَهَاضَ الْقَوَادِمِ)** بيانٌ وتوضيحٌ لهيئةِ الْمُعادِلِ وهو البُلبُلُ الَّذي جرى عليهِ مثلُ ما جرى علَى الشَّاعِرِ منْ آثارِ الفِراقِ، والمُعاناةِ، وتبدُّلِ الحالِ، بعدَ نَعِيمِ اللِّقاءِ في جنَّةِ الهوى.

ولأجْلِ ذلكَ لجَأ محمودُ حسنُ إسماعيلُ إلى العُدُولِ عنِ صُورةِ النَّعْتِ إلى صُورةِ الإضافةِ؛ في وصفِ حالِ مُعادِلِهِ، وإجراءِ الصِّفاتِ عليْهِ مثْلما أجْراها علَى نفسِهِ سابِقًا في قولِهِ: **(هَضِيمَ الْحَوَاشِي، مُسْتَخَفَّ الْمَعَالِمِ)**، فقالَ فِي وصفِ حالِ البُلبُلِ: **(نَسِيلَ الْخَوَافِي، مُسْتَهَاضَ الْقَوَادِمِ)**، والأصْلُ **(خوافِيهِ نَسِيلةٌ، وقوادِمُهُ مُستهاضةٌ)**؛ وهذا العُدُولُ لِقُوَّةِ إلْصاقِ هاتَيْنِ الصِّفتَيْنِ

بالموْصُوفِ وهو البُلْبُلُ، فليستْ هاتانِ الصِّفتانِ أَلْصقَ بالخوافِي أوِ القوادِمِ فقطْ، وإنَّما أثرُهُما مُمْتدٌّ إلى موصُوفِهِما منْ خِلالِ تضمُّنِهِما للضَّميرِ العائِدِ عليهِ.

ولا شكَّ في أنَّ التركيبَ الإضافيَّ المعْدُولَ عنِ التَّركيبِ النَّعْتِيِّ لهُ دورٌ في تشْكِيلِ مُوسيقى داخليَّةٍ، تترابطُ وتتداخلُ معَ الصُّورِ البيانِيَّةِ، والعناصِرِ التَّركيبِيَّةِ، والألوان البديعيَّة الواردةِ في الأبياتِ.

***

الخاتمة

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على أشرفِ الخلقِ أجمعين، وعلى آلِهِ وصحْبِهِ، ومَنْ تبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ.

فبعْدَ تِلكَ المُحاولةِ مِنْ إلْقاءِ نظْرةٍ بلاغيَّةٍ علَى العُدُولِ عنْ صُورةِ النَّعْتِ إلى صُورةِ الإضافةِ، ومِن خِلالِ عرْضِ الدِّراسةِ لقصِيدةِ "دُنيا أدمُعٍ ومآتِمَ" لِلشَّاعِرِ محْمُودِ حسنِ إسماعيلَ، ورصْدِ الأبياتِ الَّتِي وردَت فيها تلكَ الظَّاهِرةُ؛ يُمْكِنُ أن نُّجْمِلَ مَا توصَّلتْ إليْهِ الدِّراسةُ منَ النَّتائجِ الآتيةِ:

- للنَّعْتِ دورٌ كبيرٌ ووظيفةٌ مُهمَّةٌ في لغتِنا العربيَّةِ، لا نسْتغني عنهُ في التَّراكِيبِ، ومنَ الشُّعراءِ مَنْ يتصرَّفُ في التَّركِيبِ النَّعتيِّ، فيقلِبُ هذا التَّركِيبَ، عن طريقِ تقْديمِ الصِّفةِ على الموْصُوفِ، لاعتِباراتٍ مُعيَّنةٍ.
- العُدُولُ عنْ صُورةِ النَّعتِ إلى صُورةِ الإضافةِ لهُ أثرٌ في تماسُكِ النَّصِّ، ووضوحِ العَلاقةِ بينَ أجزائِهِ.
- وهذا العُدُولُ ليسَ نوْعًا منَ التَّفنُّنِ المُطْلقِ، ولا يأتِي بهِ الشُّعراءُ لأجلِ القافيةِ، وإنَّما لهُ أغْراضٌ تطلُبُهُ، ودواعٍ تقْتضِيهِ، وقدْ ورد فِي أسْمَى كلامٍ، وهو القُرآنُ الكريمُ.
- جاءَ العُدُولُ عنْ صُورةِ النَّعْتِ إلى صُورةِ الإضافةِ مُتآزِرًا مع الصُّورِ البيانيَّةِ الَّتِي أكثرَ مِنها الشَّاعِرُ في هذهِ القصيدةِ، وخاصَّةً الاستِعارة بالكنايةِ.
- فِي العُدُولِ عنْ صُورةِ النَّعْتِ إلى صُورةِ الإضافةِ إيجازٌ في التَّعْبِيرِ؛ إذِ المُضافُ والمُضافُ إليْهِ كالكلِمةِ الواحِدةِ، بِخِلافِ النَّعْتِ التَّابِعِ للمَنعُوتِ، فهُما كلمتانِ، ولأنَّ هذهِ القصيدةَ "دُنْيا أدْمُعٍ ومآتِمَ" باكيةٌ حزينةٌ؛ فناسبَها التَّرْكِيزُ على الصِّفاتِ بإضافتِها إلى موْصُوفِيها، عُدُولًا عنِ الأصْلِ.
- لغةُ الشَّاعِرِ سهلةٌ سَلِسةٌ مرِنةٌ، ليسَ فيها تعقيدٌ ولا الْتِواءٌ، يشُوبُها أحيانًا اللُّجُوءُ إلى بعْضِ الكلِماتِ الغريبةِ، والألفاظِ الأصيلةِ الَّتِي تردُ في أشعارِ الشُّعراءِ المُحْتجِّ بِلُغتِهِمْ.

- افتتحَ محمودُ حسنُ إسماعيلُ قصيدتَهُ بما يُمهِّدُ لموْضُوعِها، ويدلُّ عليهِ، وسادتْ نغمةُ الحُزْنِ والشَّجنِ على جُلِّ ألفاظِ قصيدتِهِ، بِما يتناسبُ مع المعانِي والأفْكارِ الواردةِ فيها.
- وظَّفَ محمُودُ حسنُ إسماعيلُ النَّعتَ المُضافَ إلى منعُوتِهِ في هذهِ القصيدةَ توظِيفًا كبيرًا؛ لأغراضٍ، هي:

١- التَّركيزُ على الصِّفةِ؛ وذلك لبيانِ المُفاجأةِ أو هولِ الصَّدْمةِ الَّتِي أصابتِ الشَّاعرَ.

٢- المُبالغةُ فِي كَمالِ الصِّفةِ في الموْصُوفِ، واشْتِمالِها عليْهِ.

٣- قُوَّةُ المُلَابَسَةِ بينَ الْمُضَافِ والْمُضَافِ إليْهِ، أيْ بيْنَ الصِّفةِ والموْصوفِ؛ لِتُعطِيَ الشَّاعِرَ قُوَّةً فِي الرَّدِّ تُحرِّكُ مُخاطَبِيهِ.

٤- إبْرازُ تِلْكَ الصِّفةِ الَّتِي تتلاءَمُ وتتناسبُ معَ سِياقِ ما سبَقَها.

٥- جعلُ الصِّفةِ في موضِعِ الصَّدارةِ أمامَ المُتلقِّي، باعتِبارِ سياقِها فِي الموقفِ الشُّعُوريِّ.

٦- امتِدادُ أثرِ الصِّفةِ في مُقابلةِ وصفٍ آخرَ، كنوعٍ مِنْ ربطِ أفكارِ القصيدةِ، وجعلِها مُتشابِكةً.

٧- قُوَّةُ إلْصاقِ الصِّفةِ بالموْصُوفِ، وامْتِدادُ أثرِهَا إليْهِ، مِنْ خلالِ تضمُّنِها لضَميرٍ مُتَّصلٍ بسببِهِ، كما في قوله: (نسيلٌ خوافيهِ، مُسْتهاضٌ قوادمُهُ).

٨- المُحافظةُ علَى الإيقاعِ النَّظْميِّ المُتحدِّرِ مِنْ أعْطافِ القصيدةِ.

- جاءتْ جُملُهُ مُطوَّلةً، بفضْلِ القُيودِ الَّتي استعمَلها؛ لمزيدٍ من التَّوْضِيحِ، وتربيةِ الفائِدةِ، كالتَّقْييدِ بالجارِّ والمجْرُورِ، والنَّعْتِ، والحالِ، والظَّرفيَّةِ، وغيرِها، و"اللُّغةُ في إفْرادِها وتركِيبِها مُثْقَلَةٌ بالضَّوابِطِ والقُيُودِ، وبِمِقدارِ دِقَّتِها وثرائِها، وتفوُّقِ أصْحابِها تكُونُ هذهِ الضَّوابطُ والقُيُودُ؛ لأنَّ دِقَّةَ الاسْتِعْمالِ ودِقَّةَ الدَّلالةِ لا مرْجِعَ لهُ إلا كثْرةُ الضَّوابِطِ والاعْتِباراتِ"(١).
- اعتمدَ في إيصالِ المعنَى إلى المُتلقِّي وانفِعالِهِ معه على التَّشْخيصِ؛ لتقريبِ

(١) شرح أحاديث من صحيح البخاري، د/ محمد محمد أبو موسى، ٣٥٦، ط٢، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٣١هـ- ٢٠١٠م.

الصُّورةِ، وإيضاحِ المعنَى، واستِمرارِ التواصُلِ معهُ، حتَّى إنَّهُ يخلعُ على المعاني المُجرَّدةِ حياةً وأحاسيسَ، يتفاعلُ معها المُتلقِّي.

- عمِلَ محمُودُ حسنُ إسماعيلُ على ربْطِ أبياتِ القصيدةِ بعضِها ببعضٍ وتعالُقِها، منْ خلالِ التَّضمينِ العروضيِّ، والضَّميرِ الَّذي هو ذُو وظيفةٍ مرجعيَّةٍ؛ يعملُ على تماسُكِ الأفكارِ وتسَلسُلِها.
- أوْلَى محمُودُ حسنُ إسماعيلُ عِنايَتَهُ بألفاظِ القصيدةِ، وأوردَ أفعالَها مُناسبةً لِموْضُوعِها وسياقِها، منْ خلالِ المَزجِ بيْنَ صيغةِ المُضارعةِ التي تحكي أحوالًا، وبيْنَ صيغةِ الماضِي الَّتِي تسردُ أحداثًا مضتْ.
- لمْ يتكلَّفْ إسماعيلُ في استِخْدامِ الألوانِ البديعيَّةِ، وإنَّمَا طَلَبَها سياقُها، واستدْعاها.

هذا، وأدعو اللهَ – ﷻ– أن ينالَ هذا البحثُ القبولَ، وأنْ يُتجاوزَ عمَّا فيهِ مِنْ خللٍ ونقْصٍ، فأبى الكمالُ إلا أنْ يكُونَ للهِ –ﷻ–، وأبتِ العصمةُ إلا أنْ تكونَ لِرُسُلِهِ وأنبِيائِهِ، وصلَّى اللهُ وباركَ على سيِّدِنا محمَّدٍ، وعلى آلِهِ وصحْبِهِ أجْمعينَ.

وآخِرُ دعْوانَا أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ

***

ثَبْت المصادر والمراجع

أولًا: الكُتُبُ العلمية:

- الأعمال الشعرية الكاملة، للشاعر محمود حسن إسماعيل، الديوان الثاني "هكذا أغني"، ط١ – القاهرة – ١٩٣٨م.
- الإنصاف في مسائل الخلاف، للإمام كمال الدّين أبي البركاتِ الأنباريّ(ت ٥٧٧هـ)، مطبعة السعادة، مصر، ط٤، ١٣٨٠هـ- ١٩٦١م.
- بدائع الفوائد، للإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بنِ أيوب ابن قيِّم الجوزيَّة (ت٧٥١هـ)، تحقيق: علي بن محمد العمران، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، جدة، د.ت.
- التَّصْويرُ الفنِّيّ في شعر محمود حسن إسماعيل، د/ مصطفى السعدني، منشأة المعارف بالإسكندريّة، د.ت.
- تطوُّر الأدب الحديث في مصر من أوائل القرنِ التاسعَ عشرَ إلى قيامِ الحربِ الكُبرى الثانية، د/ أحمد هيكل، دار المعارف- القاهرة، ط٦، ١٩٩٤م.
- التَّوابع في الجملة العربيَّة، د/ محمد حماسة عبد اللطيف، مكتبة الزهراء، القاهرة، ١٩٩١م.
- دراساتٌ لأسلوب القرآن الكريم، للشيخ محمد عبد الخالق عضيمة، دار الحديث- القاهرة، ١٣٩٢هـ- ١٩٧٢م.
- دلائل الإعجاز، للإمام عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ- أو ٤٧٤هـ)، تحقيق محمود شاكر، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط٥، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٤م.
- ديوان أبي تمَّام بشرح الخطيب التّبريزيّ، تحقيق محمد عبده عزام، ط٥، دار المعارف- القاهرة، د.ت.
- ديوان الشَّافعيّ، تحقيق د/ محمد عبد المنعم خفاجي، ط٢، مكتبة الكليات الأزهرية- القاهرة، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.
- ذيلُ الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجالِ والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، أحمد العلاونة، دار المنارة – جدَّة، ط١، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م.
- الرَّمز والرَّمزيَّة في الشعر المعاصر، د/ محمد فتوح أحمد، ط٣، دار المعارف- القاهرة، ١٩٨٤م.

•سحر البلاغة وسر البراعة، لأبي منصُورٍ الثَّعالبِيِّ (ت ٤٢٩هـ)، تحقيق: د/ درويش جويدي، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.
•شرح التسهيل، لابن مالك جمال الدين محمد بن عبد الله الطائيّ الجيَّانيّ الأندلسيّ(٦٠٠- ٦٧٢هـ)، تحقيق: د/ عبد الرحمن السيد، ود/ محمد بدوي المختون، ط١، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤١٠هـ - ١٩٩١م.
•شرح أحاديث من صحيح البخاري، د/ محمد محمد أبو موسى، ط٢، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٣١هـ- ٢٠١٠م.
•شرحُ المفصَّلِ، للعلامة مُوفَّق الدين يعيش بن عليّ بن يعيش النَّحويّ المتوفَّى سنة(٦٤٣هـ)، الطباعة المنيرية، مصر، د.ت.
•الصَّاحبيّ في فقه اللُّغةِ العربيَّة وسائلِها، وسنن العربِ في كلامِها، للإمام أبي الحسين أحمد ابن فارس بن زكريَّا الرَّازيّ اللُّغويّ، تحقيق: د/ عمر فاروق الطَّبَّاع، مكتبة المعارف- بيروت، ط١، ١٩٤١٤هـ- ١٩٩٣م.
•صحيح البُخاريِّ، للإمام محمَّد بن إسماعيل البخاريّ (ت٢٥٦هـ)، مؤسَّسة زاد للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٤٣٣هـ- ٢٠١٢م.
•كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، تحقيق: على محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.
•فاعليَّة المعنى النحوي في بناء الشعر عند محمود حسن إسماعيل، د/ عصام عبد المُنصف أبو زيد، دار غريب للطباعة والنشر- القاهرة، ط١، ٢٠١٠م.
•لسان العرب، لابن منظور جمال الدِّين محمد بن مكرم، دار المعارف- القاهرة، د.ت.
•المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير٦٣٧هـ، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.
•محمود حسن إسماعيل مدخل إلى عالَمِهِ الشِّعْريّ، د/ عبد العزيز دسوقي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٨م.

• مُعجم الشعراء من العصر الجاهلي حتى سنة ٢٠٠٢م، كامل سليمان الحبوري، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠٠٣م.
•معجم مصطلحات النقد العربي القديم، د/ أحمد مطلوب، ١٦٤، مكتبة لبنان ناشرون، ط١، ٢٠٠١م.
•مفتاح العلوم، لأبي يعقوب يوسف بن محمد بن عليّ السَّكَّاكيّ (٦٢٦هـ)، تحقيق: د/ عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلميَّة– بيروت، ١٤١٨هـ.
•المُفصَّل في علم العربيّة، لأبي القاسم محمود بن عمر الزَّمخشريّ(ت ٥٣٨هـ)، تحقيق: د/ فخر صالح قدارة، دار عمَّار، عمَّان – الأردن، ط١، ١٤٢٥هـ– ٢٠٠٤م.
•المُقتصد في شرح الإيضاح، للإمام عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ)، تحقيق: د/ كاظم بحر المرجان، الجمهورية العراقية – منشورات وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، ١٩٨٢م.
•همع الهوامع في شرحِ جمعِ الجوامِعِ، للإمام جلال الدين السيوطي (ت ٩١٤هـ)، تحقيق: د/ عبد العال سالم مكرم ، ٥/ ١٧١، دار البحوث العلميّة– الكويت، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

ثانيًا: الدَّوريَّات والمجلَّات:

•التركيب النَّعتيّ في العربيَّة دراسة في القرآن والشعر، د/ السيد علي خضر، مجلة الآداب– جامعة المنصورة، العدد ٢٧، أغسطس، ٢٠٠٠م.
•الريف المصري في شعر محمود حسن إسماعيل، د/ محمد عبد الحميد السيد غنيم، مجلة كلية اللغة العربية بالزقازيق، العدد ٢١، سنة ٢٠٠١م.
•شاعريَّة محمود حسن إسماعيل، شفيع السيّد، مجلة علامات في النقد، ج٧، م٢، شوّال ١٤١٣هـ– ١٩٩٣م، النّادي الأدبي الثّقافي بجدّة.

ثالثًا: الرَّسائل العلميَّة:

•دلالات التراكيب وعلاقتها بوجوه تحسين الكلام في ديوان ابن عبد ربه الأندلسي (ت ٣٢٨هـ)، للباحثة/ وديدة عبد الظاهر السيد الشناوي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الأزهر– القاهرة، ٢٠١٢م.

***